
دار المنظومة
DAR ALMANDUMAH
الرواد في قواعد المعلومات العربية

التحضر من خلال فكر ابن خلدون
(قراءة في الاجتماع لخلدوني)

الولدي اليوسفي[1].

مقدمة في فكر ابن خلدون:

تولد فكر ابن خلدون في رحم وعي بأزمة حضارية شاملة فعند ولادته لم تكن تونس ولا غيرها من مدن المغرب عاصمة مشعة مثلما كانت قرطبة عند ولادة ابن رشد. لذلك لم تكن لكتاباته، في تلك الاحوال، الصدى الذي كان لسابقيه.

لقد عاش ابن خلدون فترة انحطاط صبغت بالجمود على المستوى العلمي وكان أكثر الناس وعيا بذلك وعبر عنه بحسرة واضحة قائلا« ثم إن المغرب والأندلس، لما ركدت ريح العمران بهما، وتناقصت العلوم بتناقصه، اضمحل ذلك منها، إلا قليلا من رسومه تجدها في تفاريق من الناس، وتحت ربقة من أهل السنة»[2]

تحول وعيه إلى التزام أدى إلى إبداع فكر ومنهاج بحث كان محل اختلاف بين المهتمين به فمنهم من جعله سباقا في استنباط التحليل المادي [إيف لاكوست، باتسييفا] ومنهم من يعتبر خطابه مياتفيزيقيا بحت [عزيز العظمة] كما اختلفوا بين من نزع عنه صفة عالم الاجتماع وصنفه فيلسوف تاريخ [محمد عابد الجابري] ومن اعتبره مؤسس علم الاجتماع [جان ديفينو، ليليا بن سالم] وهذا دليل قاطع على ثراء فكره وتنوع فوائد منهجه. وهو ناتج عن كون فكر ابن خلدون نتج عن التزام بالبحث في الواقع فقط. لقد كرّس جهده الفكري للبحث في أسباب الانحطاط الذي كان شاهدا عليه ويتفطن الباحث المدقق في فكر ابن خلدون لهذا من خلال مسك العلاقة بين تجربته

[1] مساعد تعليم عال (علم اجتماع).

[2] عبد الرحمان ابن خلدون، المقدمة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1987، ص: 893

الحياتية ومسيرته العلمية من ناحية ووعيه بأزمة المنطقة وتبلور منهجيته من جهة أخرى. أي مسك ذلك **الحد الدقيق بين الذاتي والموضوعي.**

لقد كان دافعه للبحث هم أرقه ومسألة آمن بوجوب البحث فيها مدفوعا بمرارة الوعي بها ومن هنا كانت منهجيته استنباطا لأن ما أحس به ما شاركه فيه سابق ولا لاحق إذا استثنينا أولئك الذين يدفعهم للبحث الوعي بأزمة "الآن"[1]. ولا غرابة ولا مبالغة في ربط وجود الباحث بموضوع البحث ذلك أن الباحث عندما يعي مسألة ويلتزم بها يوقف عليها جهده وهو ما ينطبق تماما على ابن خلدون الباحث الذي عاش بامتياز على إيقاع عصره ويشهد أكثر من باحث أنه تميز بالانحطاط والتراجع العمراني. ولذلك لا غرابة أن يكون هذا الرجل باحثا بامتياز في أسباب تلك الحالة العمرانية[2].

لقد مكن علم العمران صاحبه من دراسة الاجتماع الإنساني في منهاج واقعي يلتزم الحياد تنزل فيه تصوره للعمران البشري والاجتماع الإنساني.

التحضر: رؤية خلدونية

حتى ننجز رؤية خلدونية في التحضر لا بد لنا من التمكن من المفاهيم التالية:

- الاجتماع الإنساني:
- طبائع العمران.
- الوازع.
- انتحال المعاش.
- العمران البدوي.
- العمران الحضري.

[1] يذكر أحمد ابن أبي الضياف أنه رأى أحد الأمراء يقرأ مقدمة ابن خلدون وقد كانت تلك فترة عصيبة انتهت بتسليم البلاد للمستعمر كما عاد للمقدمة بعض الأتراك أيام محاولة تجاوز أزمة الخلافة العثمانية.

[2] نقصد بالحالة العمرانية الحالة التي عليها المجتمع وهي نتاج طبيعة المجتمع المتسم بالتغيير المتواصل الناتج عن تفاعل عوامله الداخلية وتمازج الموروث بالمستحدث وتمفصل كل ذلك بالمحيط الكوني في بعدي الزمان والمكان.

أ/ الاجتماع الإنساني:

يعرف ابن خلدون الاجتماع الإنساني على أنه " عمران العالم" ويعتبره ضروريا للإنسان فصاحب المقدمة لا يرى وجود الإنسان إلا متزامنا مع العمران الذي هو الاجتماع الإنساني ولا وجود للإنسان إلا في المجتمع الذي يوفر له ضرورتي وجوده وهما الأمن والمعاش وهذا هو سر اعتبار الاجتماع ضروري للإنسان. إلا أن هذا الاجتماع لا يستقيم إلا بالوازع.

يجعل التحليل الخلدوني الإنسان كائنا عمرانيا اعتبارا لكون العمران عموما هو كل ما يتصل بالاجتماع الإنساني دون أن يكون معطى طبيعيا واعتبارا، كذلك، لانعدام وجود الإنسان خارج هذا الاجتماع فـ" لما كان الإنسان متميزا عن سائر الحيوانات بخواص اختص بها. فمنها العلوم والصنائع التي هي نتيجة الفكر الذي تميز به عن الحيوانات، وشرف بوصفه على المخلوقات. ومنها الحاجة للحكم الوازع والسلطان القاهر، إذ لا يمكن وجوده دون ذلك[1]"

و بذلك يكون الوازع أول ما يسم العمران، أي أول ما يسم وجود الإنسان، كمنظم لهذا الوجود وهو أول ما يميز المجموعة البشرية على غيرها من الكائنات التي تعيش في تجمعات. فالوازع ليس حادثا تاريخيا وإنما هو سابق حتى على الحاجيات المادية وإن قال البعض عكس هذا والقائلين بأسبقية تلك الحاجيات المادية(الغذاء-الكساء-المأوى....) على الوازع كاعتبار إنتاج وسائل تلبية هذه الحاجيات هو أول حدث تاريخي كما جاء في كتاب الأيديولوجيا الألمانية[2] وهو رأي يبدو بديهيا. إلا أن التمعن في الأمر يؤدي إلى التفطن

---

[1] عبد الرحمان ابن خلدون، المقدمة، ص: 67

[2] "Mais pour vivre, il faut avant tout boire, manger, se loger, s'habiller et quelques autres choses encore. Le premier fait historique est donc la production des moyens permettant de satisfaire ces besoins, la production de la vie matérielle elle-même, et c'est même là un fait historique, une condition fondamentale de toute histoire que l'on doit, aujourd'hui encore comme il y a des milliers d'années, remplir jour par jour, heure par heure, simplement pour maintenir les hommes en vie. Même quand la réalité sensible est réduite à un bâton, au strict minimum", K. Marx & F.Engels , *L'Idéologie Allemande*, P :19 Un document produit en version numérique par Jean-Marie Tremblay, professeur de sociologie. Courriel: jmt_sociologue@videotron.ca. Site web: http:// pages.infinit.net/sociojmt, Dans le cadre de la collection: "Les classiques des sciences sociales"Site web: http://www.uqac.uquebec.ca/zone30/Classiques_des_sciences_sociales/index.html .

لأسبقية الوازع على الحاجيات المادية بل إن المتمعن في النص المشار إليه يكتشف فيه أسبقية الوازع على ما سمي"أول حدث تاريخي" ذلك أن التأكيد، في ذلك النص، لا ينصب على المنتوج في ذاته كتلبية لحاجة اجتماعية وإنما على المنتوج كحدث"ولو كان صنع عصى"[1] والحدث في حد ذاته يعني مجهودا مبذولا ومادة مستعملة. لكن هل يتم هذا الفعل دون وازع، أيا كان شكله ومضمونه يمكن المنتج من حق تناول المادة وتحويلها؟

والمنتجات المتحدث عنها ضرورية لعيش الإنسان لكن لابد أن يكون هذا الانسان ليعيش و بما أنه لا يكون إلا في المجتمع الذي لا يكون إلا منظما فهو لا يكون إلا بالوازع الذي يضمن مهمتي المنع والتنظيم. وبهذا يتأكد بطلان فكرة الإنسان البدائي كمجموعة بشرية تعيش دون تنظيم. ذلك أن المفكرين الذين قالوا بها لم يكن قصدهم سوى البحث عن نقطة بداية الكيان الإنساني المنظم فافترضت هذه الحالة كمرحلة لاحقة للوجود أللامنتظم وبقيت هذه المسألة مجرد تصور بدون دليل على وجودها.

وهكذا يكون الفكر الخلدوني خارج نظرية العقد الاجتماعي التي ترى أن الإنسان عاش في حشود تتسم بالفوضى ثم تطورت تلك الحالة إلى المدنية عن طريق عقد اجتماعي يتنازل بموجبه كل فرد عن بعض حريته مقابل ضمان الأمن والاستقرار[2]. وهي نظرية وإن تداولها المفكرون فليس لها ما يؤكدها" الانسانية، يقول جان قازناف، لا تمثل أبدا حالة فاقدة لكل ثقافة وبالتالي بدون تنظيم والحال أن في علم الاجتماع كل تنظيم يعني دائما شكلا ما من المؤسسة[3]". وبالعودة لكتاب ج. ج. روسو " في العقد الاجتماعي" نجده يبني تحليله على احتمال لا برهان له حيث يقول أنه افترض أن البشر بلغوا حدا لم يعد ممكنا فيه أن تتواصل حالتهم البدائية فوجدوا الخلاص في العقد الاجتماعي الذي مثل حلا لمشكلة" إيجاد شكل للتجمع يحمي ويحفظ بمجموع القوة المشتركة شخص وممتلكات كل من المشتركين متحدا مع الكل لا يطيع سوى نفسه ويبقى حرا بنفس الدرجة التي كان عليها سابقا[4]" أما ابن خلدون فإنه ينطلق من طبيعة الإنسان الاجتماعية وهي عنده، كما يقول عبد القادر

---

[1] عبد الرحمان ابن خلدون، المقدمة، ص: 67

[2] يراجع بهذا الخصوص كتاب جون جاك روسو في العقد الاجتماعي.

[3] Jean GAZENEUVE, *Dix Grandes Notions De Sociologie* , Seuil, Paris, 1976,P : 21

[4] J.J.ROUSSEAU ,*Du Contrat Social*,Union Générale d'édition, Paris, 1973,P : 72.

جغلول، تلازم الوجود البشري[1]. فصاحب المقدمة لا يرى وجود الإنسان إلا متزامنا مع العمران ذلك أن وجود الإنسان لا يكون إلا في المجتمع الذي لا يكون، بدوره، إلا منظما ويبني رأيه هذا على طبيعة الإنسان "الاجتماع الإنساني ضروري. ويعبر الحكماء عن هذا بقولهم: " الإنسان مدني بالطبع"، أي لا بد له من الاجتماع الذي هو المدنية في اصطلاحهم و هو معنى العمران[2]" نلاحظ أن ابن خلدون غير راض على لفظ " مدني/ مدنية" إذ يعوضه بلفظ " العمران" لأن مفهوم المدنية يعود إلى مجالين يونانيين الأول مادي وهو المدينة اليونانية والثاني نظري وهو كتابات الفلاسفة ويختلف ابن خلدون مع المجالين فمن ناحية أولى يتركب المجتمع الإنساني عنده من مجالين(البدو والحضر) يتكاملان في اختلافهما.. أما الفلسفة اليونانية فلا يمكن أن ننفي أثرها في فكره مهما كان موقفه منها لأن الذي ينطلق من فكر لا يستطيع نفي أثره عليه وإن تجاوزه بتطويره أو برفضه لأن ذلك الفكر كان، على الأقل، دافعه للبحث.

ب-طبائع العمران

أختزلُ طبائع العمران عند ابن خلدون في **الحالة العمرانية** وفيها جانبان:

أ/ الأحوال العمرانية (الجانب المادي في الحياة الاجتماعية) التي عليها المجتمع وهي نتاج طبيعته المتسمة بالتغيير المتواصل الناتج عن تفاعل عوامله الداخلية وتمازج الموروث بالمستحدث وتمفصل كل ذلك بالمحيط الكوني في بعدي الزمان والمكان. لذلك يفرق ابن خلدون بين البدو والحضر بانتحال المعاش " اعلم أن اختلاف الأجيال في أحوالهم إنما هو باختلاف نحلتهم من المعاش[3]" وللمجال الطبيعي دور في تطبع الناس ويطنب ابن خلدون في تفسير ذلك ويخصص له المقدمة الثالثة "تأثير الهواء وأنواع الأقاليم" والمقدمة الرابعة " أثر الهواء في أخلاق البشر" والمقدمة الخامسة " في اختلاف أحوال العمران في الخصب والجوع وما ينشأ عن ذلك من الآثار في أبدان البشر وأخلاقهم"

[1] Abdelkader DJAGHLOUL, *Trois études sur Ibn Khaldoun*, Université d'Oran,1980 Cahier du C D S H

[2] عبد الرحمان ابن خلدون ، المقدمة ص: 69

[3] ابن خلدون ، المقدمة، ص: 210

ب/ **القيم العمرانية:** وهي الجانب المجرد من طبائع العمران وإن كان لا ينقطع عن الأول حتى أن ابن خلدون يربط بين التمدن والعلوم والصنائع والأديان السماوية من ناحية وأحوال المجال الطبيعي من ناحية أخرى إذ يقول" فالإقليم الرابع أعدل العمران والذي حافاته من الثالث والخامس أقرب إلى الاعتدال، والذي يليهما من الثاني والثالث والسادس بعيدان من الاعتدال. والأول والسابع أبعد بكثير، فلهذا كانت العلوم والصنائع والمباني والملابس والأقوات والفواكه بل والحيوانات، وجميع ما يتكون في هذه الأقاليم الثلاثة المتوسطة مخصوصة بالاعتدال. وسكانها من البشر أعدل أجساما وألوانا وأخلاقا وأديانا، حتى النبوات فإنما توجد في الأكثر فيها. ولم نقف على خبر بعثة في الأقاليم الجنوبية ولا الشمالية. وذلك لأن الأنبياء والرسل إنما يختص بهم أكمل النوع في خلقهم وأخلاقهم. قال تعالى " كنتم خير أمة أخرجت للناس" وذلك ليتم القبول لما يأتيهم به الأنبياء من عند الله. وأهل هذه الأقاليم أكمل لوجود الاعتدال لهم، فتجدهم على غاية من التوسط في مساكنهم وملابسهم وأقواتهم وصنائعهم....»

و ضمن هذا يرتب سلوك الناس وما يتعودونه أثناء عيشهم من ذلك قول صاحب المقدمة أن أهل البدو أقرب إلى الشجاعة من أهل الحضر " والسبب في ذلك أن أهل الحضر ألقوا جنوبهم على مهاد الراحة والدعة، وانغمسوا في النعيم والترف ووكلوا أمرهم في المدافعة عن أموالهم وأنفسهم إلى واليهم والحاكم الذي يسوسهم والحامية التي تولت حراستهم، واستناموا إلى الأسوار التي تحوطهم والحرز الذي يحول دونهم، فلا تهيجهم هيعة ولا ينفر لهم صيد، فهم غارون آمنون، قد ألقوا السلاح، وتوالت على ذلك منهم الاجيال، وتنزلوا منزلة النساء والولدان الذين هم عيال على أبي مثواهم، حتى صار ذلك خلقا يتنزل منزلة الطبيعة.

و أهل البدو لتفردهم عن المجتمع، وتوحشهم في الضواحي، وبعدهم عن الحامية وانتباذهم عن الأسوار والأبواب قائمون بالمدافعة عن أنفسهم، لا يكلونها إلى سواهم، ولا يثقون فيها بغيرهم. فهم دائما يحملون السلاح ويتلفتون عن كل جانب في الطرق، ويتجافون عن الهجوع إلا غرارا في المجالس وعلى الرحال وفوق الأقتاب، ويتوجسون للنبآت والهيعات، ويتفردون في القفر والبيداء، مدلين ببأسهم واثقين بأنفسهم، قد صار لهم البأس خلقا والشجاعة سجية يرجعون إليها متى دعاهم داع أو استنفرهم

صارخ. [1]" ثم يوجز ذلك في قوله" أصله أن الإنسان ابن عوائده ومألوفه لا ابن طبيعته ومزاجه. فالذي ألفه في الأحوال حتى صار خلقا وملكة وعادة تنزل منزلة الطبيعة والجبلة." وليس من الصعب أن نفهم أن ما يألفه الإنسان يصبح له طبعا.

فالعمران البشري ينقسم، إذا عند ابن خلدون إلى مجالين: وهما العمران البدوي والعمران الحضري. ودراسته لهما تتمحور حول ما أشرت إليه سابقا بضرورتي الوجود أي: الأمن والمعاش في إطار نمط الوازع الذي ينظم التجمع.

ج- الوازع:

الوازع مفهوم خلدوني متعدد الأبعاد فهو داخلي مكتسب في التنشئة الاجتماعية وهو خارجي متسلط وهو بسيط ومعقد أي أن شكله ووظيفته ليسا نمطيين فهو ملازم للمجتمع ملازمة الطبيعة للشيء فهو له عارض ذاتي.

أما عن ماهية الوازع وكيفية تأديته لوظيفته فإن كل ذلك يتغير حسب المحيط والأحوال وطبائع العمران وهي جماع ما يحدث في المجتمع ويتحول بمستقر العادة إلى طبائع تسم كل منها أحد جوانب المجتمع مثل انتحال المعاش والتعبد وتحصيل المعارف والتعايش والتنافر والتأنس والتوحش والتعاون والتصارع وضمن ذلك الوازع

د- انتحال المعاش:

يلتقي قول ابن خلدون في انتحال المعاش ووجوه الكسب، وهو ما يخصص له الباب الخامس من المقدمة، مع مذهب مركزية البشر في الكون "l'anthropocentrisme" فكل ما فيه مسخر له ويستشهد بالآية 13 من سورة الجاثية " وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعا منه"

إلا أنه يعود بعد ذلك إلى تفكيره الواقعي ويربط انتحال المعاش بسعي الإنسان في ذلك ويعرف المعاش بقوله " اعلم أن المعاش هو عبارة عن ابتغاء الرزق والسعي في تحصيله. وهو مفعَل من العيش"[2] ويخصص الفصلين الثالث والرابع من الباب الخامس ليبين أن ما لا سعي فيه ليس من المعاش كالخدمة وابتغاء الأموال من الدفائن والكنوز[3]

---

[1] نفس المرجع، ص: 219/218

[2] نفس المرجع، ص:682

[3] نفس المرجع، ص:686

1- **العمران البدوي**:

يعرف ابن خلدون البدو على أنهم " المقتصرون على الضروري في أحوالهم، العاجزون عما فوقه، وأن الحضر المعتنون بحاجات الترف والكمال في أحوالهم وعوائدهم، ولا شك أن الضروري أقدم من الحاجي والكمالي وسابق عليه، لأن الضروري أصل والكمالي فرع ناشئ عنه."[1]

و بذلك يكون العمران البدوي أصل للحضري سابق عليه "لأن أول مطالب الإنسان الضروري ولا ينتهي إلى الكمال والترفيه إلا إذا كان الضروري حاصلا. فخشونة البداوة قبل رقة الحضارة."[2]

ثم يصف أهل البدو بأنهم المتصفون بالشَجاعة والقوة وبجل الصفات الحميدة " وأهل البدو لتفردهم عن المجتمع، وتوحشهم في الضواحي، وبعدهم عن الحامية وانتباذهم عن الأسوار والأبواب قائمون بالمدافعة عن أنفسهم، لا يكلونها إلى سواهم، ولا يثقون فيها بغيرهم. فهم دائما يحملون السلاح ويتلفتون عن كل جانب في الطرق، ويتجافون عن الهجوع إلا غرارا في المجالس وعلى الرحال وفوق الأقتاب، ويتوجسون للنبآت والهيعات، ويتفردون في القفر والبيداء، مدلين ببأسهم واثقين بأنفسهم، قد صار لهم البأس خلقا والشجاعة سجية يرجعون إليها متى دعاهم داع أو استنفرهم صارخ. [3]"

يضع ابن خلدون ثلاثة أنماط للبدو يرتبهم بالنسبة للمدينة حسب ثلاثة أبعاد: ثقافي وتاريخي وجغرافي. وذلك بالاعتماد على نمط عيشهم وطرق انتحال المعاش.

أ/ العرب[4]: وهم أصحاب نمط العيش الأكثر بعدا عن المدينة وعوائد الترف والأكثر توغلا في الأماكن الصعبة والتشبث بالسغب. " فكانوا لذلك أشد الناس توحشا، وينزلون من أهل الحواضر منزلة الوحش غير المقدور

---

[1] نفس المرجع ص: 213

[2] نفس المصدر، ص: 214

[3] نفس المرجع، ص: 219/218

[4] المجال لا يسمح هنا بمناقشة مسألة مفهوم " العرب" عند ابن خلدون ولقد تعرضنا لهذه المسألة غي رسالة الدكتوراه التي أعددناها وبينا أن ابن خلدون يستعمل لفظ " العرب" كمفهوم يدلل به على نمط عيش يشمل المجموعات البدوية الأكثر بعدا عن المدينة وأكبر دليل على ذلك قوله" فقد تبين لك أن جيل العرب طبيعي لابد منه في العمران" وهذا رأي لا يستقيم إذا كان المقصود بالعرب المفهوم العرقي إذ لا يمكن اعتبار عرق ما " طبيعي لا بد منه في العمران"

عليه والمفترس من الحيوان العجم"[1] وهم الأشجع لتعودهم قصوة الحياة يضمن التنظم الامتثالية وقهر القيم المكتسبة ثم إن اتسام اجتماعهم بالندرة في أحوال اكتساب المعاش تبعد عنهم أسباب الخلافات وتشتد لحمتهم ويتحول نكد العيش عندهم إلى شخصية ثقافية حتى يقول ابن خلدون " لو وجد واحد منهم السبيل إلى الفرار من حاله وأمكنه ذلك لما تركه[2]" لذلك يعرفون الامتثال الأشد ويكون وازعهم داخلي خاصة ولا تكون لشيخ القبيلة إلا الرئاسة ومعناها أنه لا قبل له بحملهم على ما لا يرغبون فيه. فهو سلطة لكن دون استبطان مفهوم الحاكم والسياسة لأنه لا يتعدى أن يكونِ دورا اجتماعيا لا يزيد شيخ القبيلة فيه على أن يكون رئيسا وهو رمز ومرجع أخلاقي ولا تكون سلطته قاهرة نظرا لافتقاده لعنصر القهر، فالرئاسة "سؤدد وصاحبها متبوع وليس له عليهم قهر في أحكامه"[3]

ب/الشاوية: وهم "من كان معاشه في السائمة مثل الغنم والبقر فهم ظعن في الأغلب لارتياد المسارح والمياه لحيواناتهم، فالتقلب في الأرض أصلح بهم، ويسمون شاوية ومعناه القائمون على الشاه والبقر"[4] هؤلاء أكثر تأنسا لـ" ارتيادهم المسارح والمياه لحيواناتهم... ولا يبعدون في القفر لفقدان المسارح الطيبة" وبذلك يكونون أقل تماثلا من النمط السابق وربما يظهر بينهم بعض الخلاف بسبب المراعي. ولكن يبقى الوازع خارجيا عندهم ضعيفا لأن التماثل وإن ضعف مقارنة مع النمط السابق فإنه يبقى منظما للمجموعة.

ج/ المزارعون: وهم من " كان معاشه منهم في الزراعة والقيام بالفلح... وهؤلاء هم سكان المدر والقرى والجبال"[5] هذا النمط الثالث من البدو وهم المجموعة الأكثر تأنسا والاستقرار طبيعة تغلب عليهم نظرا لنزولهم حول الأشجار واعتمادهم عليها في انتحال معاشهم وهو ما يولد فيهم فن العناية بالأشجار وهذه حرفة تحكم على هذه المجموعة بالاستقرار بحكم دورة(cycle) الأشجار التي تعدل أنشطة المزارع في أغلب الحالات طيلة سنة.

ويعني الاستقرار متانة العلاقة بين الإنسان والأرض ذلك أن نمط انتحال المعاش يتطلب تحويل الطبيعة وبتغييره للطبيعة يغير الإنسان نفسه فإذا كان الإنسان ثمرة ظروفه وتغيير الطبيعة يعني تغيير ظروفه فهذا يعني تغييره

---

[1] عبد الرحمان ابن خلدون، المقدمة، ص: 213 .

[2] نفس المصد، ص: 227

[3] انفس المصدر، ص:244

[4] نفس المصدر، ص: 212 .

[5] نفس المصدر، ص: 212

هو نفسه. فمثلا استقراره يغير عنده تمثله للمسكن فيفكر في بناء مسكن يصمد أمام عوامل الطبيعة ولا يفكر في حمله مثل خيمة الرحل. وعندما يستقر البدو يطرأ عليهم تغيير في علاقتهم الاجتماعية ذلك أن الاستقرار يعني التأنس بالمكان والاطمئنان للإقامة به ويتحول نصيب من التعلق بالقبيلة إلى التعلق بالأرض مصدر الرزق لأن التعلق بالقبيلة ليس طبيعة في الإنسان وإنما ثقافة ونمط عيش تحتمهما الظروف التي تكون القبيلة فيها هي ضامن الغذاء والأمن وعلى قدر قسوة الظروف المعيشية تكون صلابة وحدة القبيلة وتوحش أفرادها. لذلك يقول ابن خلدون أن العرب (بمفهوم القبائل الأكثر بعدا عن الحواضر) يعيشون أصعب الظروف الاجتماعية ويمثلون أقوى العلاقات الاجتماعية. لكن عندما تصبح الأرض ضامنة لانتحال المعاش يضيق مجال التعلق بوحدة القبيلة، ولو نسبيا، ويتحول للتعلق بالأرض ويصبح التوحد مع الآخر تابعا للاشتراك في ملكية الأرض أكثر من الانتماء الوجداني للقبيلة. ففي حال اكتساب المعاش باعتماد الفلح تضعف أهمية القبيلة كضامن لأول ضروريات الحياة وهو الغذاء. فيتصل الحضور بالمنطقة ومن هنا جاء مفهوم الحِضارة (بكسر الحاء) عند ابن خلدون وهو الاستقرار والإقامة بالمكان[1].

وعندها يبرز الاختلاف بسبب أهمية الأرض مصدر الرزق. ويولد ذلك الحاجة لمن يُحتكمُ إليه ويبرز تفاوت بين الناس لا حسب الفروسية والتمسك بالقيم وإنما حسب ما يملكه الفرد وما يخزّنه من المحاصيل وتشهد بذلك المجموعة بروز كبار مالكي الأرض. كما تبرز مهارات تصنع ما يستحقه الفلاح من أدوات الفلح وبذلك تتشكل شريحة اجتماعية أخرى تعيش من الأرض دون أن تملكها. وهي شريحة تعرض إنتاج مهارتها الحرفية وتستقر بمكان معين. وهكذا توجد ورشات مستقرة يقصدها الفلاح حسب حاجته. كما أن الفلاح ينتج ما فوق حاجته وهذا الزائد عن الحاجة يكون هو السبب الرئيسي لظهور التحضر إذ يجد المنتج نفسه مضطرا لتخزين المحاصيل التي سينتفع بعرضها للبيع وتنمو أنشطة البيع والشراء وتُبنى لذلك الغرض الدكاكين إلى جانب ورش الحرفيين وتكون بذلك النواة الأولى للقرية. وبحثا عن مزيد من الربح وهو قانون كبار المالكين ومحرك نشاطهم يسعى هؤلاء لتنويع مصادر الكسب فيتنافسون في الهيمنة على تلك الأنشطة البارزة ويستثمرون فيها ما يزيد على حاجاتهم من إنتاجهم وبذلك تتوسع تلك النواة.

---

[1] في لسان العرب" الحِضارة : الإقامة بالحضر" و" الحضر: خلاف البدو" الجزء:4، ص:197

وفي هذه الحالة تتسع البيوتات وتتعدد العصبات ويصبح من الضروري أن يبرز وازع قوي متحكم يتمثل في العصبية التي ينجح رئيس أحد البيوت في جمعها حوله " فلا بد في الرياسة على القوم أن تكون من عصبية غالبة لعصبياتهم واحدة واحدة، لأن كل عصبية منهم إذا أحست بغلب عصبية الرئيس لهم أقروا بالإذعان والإتباع "

2- العمران الحضري:

التحضّرُ لغة على وزن التفعّلُ وهو طلب الفعل أو الشيء وبذلك يكون التحضر طلب الحضر وهو لفظ يرمز به للمدينة والاستقرار. يقول ابن منظور" والحضر والحضرة والحاضرة: خلاف البادية، وهي المدن والقرى والريف، سميت بذلك لأن أهلها حضروا الأمصار ومساكن الديار التي يكون لهم بها قرار" [1]ولدى العامة يقصد عموما بالتحضر مجموعة سلوكات خاصة بالحياة داخل المدن. إذ صار لفظ تحضر مواز للكياسة واللطف والرقة والمجاملة. أو لنقل في كلمة واحدة هي ثقافة التعايش في المدينة. وانطلاقا من فكرة أسبقية العمران البدوي على العمران الحضري يكون التحضر ثمرة تحول في البنى الاجتماعية والاقتصادية (انتحال المعاش).

التحضر موضوع علم الاجتماع:

فالتحضر ثمرة مجهود إنساني يسعى لإيجاد المدينة وهذا ما يستشف من صيغة «تحضّر/ تفعّل" أي طلب الفعل ومن هنا كان التحضر موضوعا لمبحثين مختلفين.

الأول يبحث في التخطيط للمدن، أي يعتبر التحضّر في هذا السياق فن تشييد المدن. وتعتبره فرنسواز شواي علما مستقلا وتجعل من المهندس المعماري الأسباني الدفونصو سردا[2] أول من أوجد نظرية في هذا المجال [3]. إلا أنه موضوع علوم متعددة. فالجغرافيون يهتمون بقضية التحضر كمسألة تهيئة فضاء المدن وهي بذلك تكون عندهم مجموعة رؤى ونظم تهدف تهيئة الفضاء الحضري حسب ما تقتضيه جمالية المحيط وما تفرضه الظروف

---

[1] ابن منظور، لسان العرب: 4، دار صادر 1994، ص: 197

[2] Ildefonso Cerda مهندس معماري أسباني (1816/1876) واضع أول مؤلف في هذا مجال التمدن وواضع *la Teoria general de la urbanizaci on,*imprenta espanola,torija,14,bajo,1887

[3] FRANCOISE Choay , URBANISME - Théories et réalisations , 2003 *Encyclopédia Universalis 9*

الاجتماعية. ويهتم القانونيون (القانون الإداري) في المجال بمجموعة قوانين ولوائح تخص استعمال الأرض واستغلالها لتهيئة الفضاء الجغرافي للمدن ومحيطها. وفي الهندسة التحضر هو نظرية خط المدن ويعد ذلك مهندسون مختصون في رسم التخاطيط وتطبيقها تماشيا مع برامج تهيئة فضاء المدن. والتحضر عند السلطة هو التهيئة العمرانية(الأشغال التمدينية) أي كل الأشغال المتعلقة بتهيئة المدن والقرى. ومن معانيها أيضا ما يتعلق بتهيئة المناطق ذات الطابع الريفي لتصبح مركزا سكنيا ذات طابع مديني. وكذلك التحول التحضيري الذي يدك أسس حي ما لتحويله من طابع إلى آخر أو تحويل مجموعة سكنية من مكان لآخر تماشيا مع أحد القرارات السياسية التي تكون السلطة قد اتخذته.

و يدرس المبحث الثاني نشأة المدن والتفاعلات بين الفاعلين الاجتماعيين المؤدية لبروزها ولأن هذا يتصل بفعل الإنسان في الإطار العمراني عموما فإنه يدخل في مجال علم العمران.

تعتبر المدارس الاجتماعية الحديثة التحضر موضوع اهتمام أو اختصاص في العلوم الإنسانية حديثا حداثة التوسع العمراني الذي تعرفه مجتمعات اليوم وهو كمفهوم علم اجتماعي يعتبر دالا على حالة عمرانية تتسم بتحول عميق. فالحالة العمرانية تتسم بقوة أو ضعف درجة التحول الذي يعكسه الواقع الاجتماعي. فلئن اتفق جل المنظرين الاجتماعيين على أن المجتمع الإنساني متغير بطبعه فإنهم يقرون أيضا بأن حركية التغير هذه يشتد نسقها ويضعف حسب متغيرات متعددة منها الداخلي ومنها الخارجي. الحالة العمرانية متحركة عندما يعرف أعوان التغيير عوامل التغيير تنشط في مجالها الاجتماعي وقد تعرف تجمدا إذا ما اتسمت بضعف نسق حركة عوامل التغيير وطبعت بالتماثلية ورفض كل تجديد. ونشاط اعوان التغيير و تدخل عوامل التغيير هذه أو تجمدها لا ينتج عن قرار يُتخذ وإنما هي حالة، يصفها كلود لفيس ستروس (أنتروبولوجي فرنسي) بالحارة عندما تنشط فيها حركة عوامل التغيير وبالبرودة عندما تضعف تلك العوامل[1]، تنتج عن عدة متغيرات سنتعرض لها. وعوامل التغيير الخارجية تنشط في مجال الحالة الاجتماعية تثاقفا أو انثقافا. كما أن نشاطها يكون موجها للداخل أو للخارج.

تطور علم الاجتماع أساسا نتيجة سرعة نسق تغير الحالة العمرانية التي عرفتها المجتمعات الغربية بمفعول قوة عوامل التغيير الجديدة التي أشعلت حرارتها بالمفهوم الذي ذكرناه عن ك.لفيستروس. والتصاق علم الاجتماع

[1] Cl. Lévi-strauss, *La pensée sauvage*, Plon, Paris, 1962. P :309, 310

بواقع المجتمع جعله يتمتع من حيث اهتماماته بحماية من السقوط في المباحث الافتراضية والمجادلات والتأملات التجريدية. لذلك لا تطرح عادة قضية ما كمبحث لعلم الاجتماع إلا أن تكون لها أبعاد اجتماعية تمس صميم الحياة الاجتماعية لذلك نقول أن التحضر كقضية علم اجتماعية قد يختلف عما يطرحه القانون أو الاقتصاد في دراستهما لنفس القضية. طبعا لا ننفي بهذا مسألة تكامل كل العلوم الإنسانية وإنما نقصد التأكيد على خصوصية طرق ودوافع دراسة المسألة عند كل واحد من الاختصاصات.

تقول فرانسواز شوا أن لفظ التحضر (urbanisme) يعود في اللغة الفرنسية إلى سنة 1910 ويدلل على اختصاص جديد ولد من المتطلبات الخصوصية للمجتمع الصناعي. لذلك تعتبر التحضر علم تنظيم فضائي للمدن، يتضمن وجه مزدوج نظري وتطبيقي.[1]

لكننا نرى أن التحضر الذي تتحدث عنه فرنسواز شوا ليس هو القراءة الاجتماعية [2] فنحن نعتبر التحضر فرعا من فروع علم الاجتماع ولد في مدرسة التحول الكبير، وهي التحاليل الاجتماعية التي درست التحول الذي عرفته أوروبا مع تطور المجتمع الصناعي إذ عرفت تلك الفترة تحولات عميقة يعتبرها بيار برنبوم دافع تطور علم الاجتماع [3]ولئن ربط برنبوم هذا التطور

[1] FRANCOISE Choay , *URBANISME - Théories et réalisations* , 2003 *Encyclopédia Universalis 9* . Le terme « urbanisme » est une création récente. Il est apparu dans la langue française au cours des années 1910 pour désigner une discipline nouvelle, née des exigences spécifiques de la société industrielle. L'urbanisme se présente alors comme la science de l'organisation spatiale des villes et comporte une double face théorique et appliquée.

[2] ففرنسواز شوا تتحدث عن التحضر لا كتحول اجتماعي وإنما كتخطيط المدن Dans son développement, l'urbanisme a connu deux phases distinctes. La première est marquée par une prédominance de la théorie sur la pratique et par l'élaboration , SitteلJtrès poussée des trois ouvrages pionniers – bien différents – de Cerd *dtebau*, 1889) et Howard, le père de la « cité-jardin » (*Garden-Cities*ن(*Der St of Tomorrow*, 1898). La seconde, qui s'étend approximativement jusqu'aux années 1960, vit le triomphe du courant progressiste et de l'influence des C.I.A.M. (congrès internationaux d'architecture moderne) auxquels on doit *La Charte d'Athènes* (1933). Dans un premier temps, correspondant à l'entre-deux-guerres, l'urbanisme demeure cantonné dans la théorie et dans une expérimentation limitée. En revanche, le processus d'urbanisation intense qui a suivi la Seconde Guerre mondiale a permis à l'urbanisme d'affirmer son statut de discipline appliquée, à l'échelle planétaire, dans les pays développés comme dans le Tiers Monde.

[3] Pierre Birnbaum, professeur à l'université de Paris-I, *Sociologie de Masse. Encyclopdia Universalis.* Au XIX^{e} siècle, la sociologie s'est développée,

لعلم الاجتماع بالثورة الفرنسية وهي مسألة قابلة للجدل ذلك أن التحولات عرفتها كل أوروبا والتي تأثرت لا محالة بتلك الثورة فإن العامل الأساسي للتحولات التي طبعت أوروبا هو التطور الصناعي وما انجر عنه من تفكك أسس الإقطاع وتحول اجتماعي دك الأسس البنيوية للمجتمع وألغى وظائف وخلق أخرى ونمى عالم رموز واضمحل آخر في المجتمع الغربي وتجسد هذا التحول، خاصة، في نمو التحضر إذ «تفيد التقديرات، يقول الدكتور اسحاق يعقوب القطب، بأن أقل من (3 %) من سكان العالم كانوا يعيشون في المناطق الحضرية حوالي عام (1800)، وفي عام (1920) ارتفعت هذه النسبة إلى (14%) »[1] طبعا ما كان لهذا التحول أن لا يُحدث زلزلة في المجتمع على جميع مستوياته. وقد اهتم بذلك علماء اجتماع مثل الالماني فاردينان طونيز[2] والفرنسي إيميل ديركايم[3]، أما الجانب المتصل بتقنية التنظيم الفضائي للمدن فإننا وإن كنا نقر بأهميته وأهمية ما ينجزه، تخطيط المدينة، كظاهرة اجتماعيه لكننا لا نجده من حيث هو معرفة من صلب مواضيع علم الاجتماع وإنما هو من اهتمام المهندسين والقانونيين ،....

يدرس المبحث العلمي للظاهرة لا في لحظة تحولها وإنما في لحظة تجليها ، أي لحظة ولادتها لأول مرة ويتتبع تحولاتها في ما بعد. لذلك يرجع الباحثون في التحضر إلى أول ما يتبادر للذهن في هذا المجال وهو التساؤل عن كيفية بروز الحواضر؟ ولا يبدو فرع من العلوم الإنسانية مؤهل للإجابة على هذا السؤال أكثر من علم الاجتماع لأنه يدرس الظاهرة كلية في إطارها الطبيعي (أي المجتمع) وباتصالها بمختلف العوامل الاجتماعية التي تشكل مجتمعة الظاهرة الاجتماعية.

---

essentiellement, pour rendre compte des désorganisations sociales produites par la Révolution française. A une époque de profondes mutations et où de nouvelles catégories sociales bouleversaient le système politique, les premiers sociologues se sont en effet donné pour tâche de souligner la nécessité d'une organisation sociale permanente et concrète ; pour eux, la société telle qu'elle est n'a rien de commun avec les vues métaphysiques qui guidaient les révolutionnaires dans leur reconstruction conceptuelle d'un monde nouveau.

[1] الدكتور اسحاق يعقوب القطب ، نحو استراتيجية للتحضر في البلدان العربية. مبحث قدم في المؤتمر الثاني للاجتماعيين العرب ، بغداد ، 1980.

[2] فردند طونيز "*Communauté et société*" ترجمه إلى الفرنسية J. Leif، مطبعة الجامعة الفرنسية (P.U.F.)1944

[3] يرجع في هذا إلى كتاب "*De la division du travail social*' 'Paris,P.U.F.,1960

وبالتالي يكون التحضر، كأحد فروع علم الاجتماع، مجالا لدراسة عوامل ودوافع نمو المدن والتحول الذي تشهده وانعكاسات ذلك على المجتمع.

و هنا تبرز فائدة الدراسة الخلدونية لأن منهج ابن خلدون يدرس الظاهرة الاجتماعية في نطاق طبائع العمران. وأول ما يتبادر للدارس الاجتماعي البحث عن تولد (genèse) المدينة.

يقسم ابن خلدون نشأة المدن إلى قسمين:

التحضر الطبيعي.

الحاضرة السياسية.

بما أن المدينة من ابتكار الإنسان فهو إذا سابق عليها وبذلك تكون المدينة مرحلة لاحقة للوجود الإنساني وهذا ما يذهب إليه ابن خلدون إذ يعتبر" أن البدو أقدم من الحضر وسابق عليه" ويدلل على ذلك بقوله " ومما يشهد لنا أن البدو أصل للحضر ومتقدم عليه، أنا إذا فتشنا أهل مصر من الأمصار وجدنا أولية أكثرهم من أهل البدو الذين بناحية ذلك المصر وفي قراه، وأنهم أيسروا فسكنوا المصر وعدلوا إلى الدعة والترف الذي في الحضر. وذلك يدل على أن أحوال الحضارة ناشئة عن أحوال البداوة، أنها أصل لها، فتفهمه"[1]

أ:التحضر الطبيعي:

وهي الحالة التي تكون فيها المدينة ناتجة عن تفاعل عوامل داخلية وإن كان الأمر هنا لا يبدو خاليا، ولو ظاهريا، من تناقض إذ كيف يمكن الحديث عن عوامل داخلية لشيء لم يوجد بعد. ونتجاوز هذا الإشكال باعتبار المدينة تُولد عن تفاعل عوامل داخلية للمنطقة التي تبرز فيها. ويفيدنا، في هذا المجال، ترتيب ابن خلدون للبدو إذ يمكننا من تصور وفهم جيد لآلية بروز المدينة.

ففي النموذج الثالث (المزارعون) يبرز الاختلاف بسبب أهمية الأرض مصدر الرزق. ويولد ذلك الحاجة لمن يُحتكمُ إليه ويبرز تفاوت بين الناس لا حسب الفروسية والتمسك بالقيم وإنما حسب ما يملكه الفرد وما يخزّنه من المحاصيل وتشهد بذلك المجموعة بروز كبار مالكي الأرض. كما تبرز

---

[1] عبد الرحمان ابن خلدون، المقدمة دار الكتاب اللبناني 1978، ص: 214.

مهارات تصنع ما يستحقه الفلاح من أدوات الفلح وبذلك تتشكل شريحة اجتماعية أخرى تعيش من الأرض دون أن تملكها. وهي شريحة تعرض إنتاج مهارتها الحرفية وتستقر بمكان معين. وهكذا توجد ورشات مستقرة يقصدها الفلاح حسب حاجته. كما أن الفلاح ينتج ما فوق حاجته وهذا الزائد عن الحاجة يكون هو السبب الرئيسي لظهور التحضر إذ يجد المنتج نفسه مضطرا لتخزين المحاصيل التي سينتفع بعرضها للبيع وتنمو أنشطة البيع والشراء وتُبنى لذلك الغرض الدكاكين إلى جانب ورش الحرفيين وتكون بذلك النواة الأولى للقرية. وبحثا عن مزيد من الربح وهو قانون كبار المالكين ومحرك نشاطهم يسعى هؤلاء لتنويع مصادر الكسب فيتنافسون في الهيمنة على تلك الأنشطة البارزة ويستثمرون فيها ما يزيد على حاجاتهم من إنتاجهم وبذلك تتوسع تلك النواة.

ويعبر ابن خلدون عن ذلك" ثم إذا اتسعت أحوال هؤلاء المنتحلين للمعاش وحصل لهم ما فوق الحاجة من الغنى والرفه، دعاهم ذلك إلى السكون والدعة، وتعاونوا في الزائد على الضرورة، واستكثروا من الأقوات والملابس، والتأنق فيها وتوسعة البيوت واختطاط المدن والأمصار للتحضر" [1]ويقول علي أمليل أن المدينة عند ابن خلدون نتيجة نمو طبيعي في المجتمع البشري[2].

ويذهب بيار جورج في هذا الاتجاه إذ يعتبر أن التمدن(l'urbanisme) كان إبان أكثر من خمس وعشرين قرنا، في بلدان البحر الأبيض المتوسط وأوروبا، تعبيرة مجتمع واقتصاد مرتكزين على ريع مُلك يهيمن عليه ويستغله ملاك الأرض[3]. ويذهب عبد الوهاب بوحديبة نفس المَذهب إذ يقول أن سكان القرية هم أولا فلاحون إذ يعيشون من العمل في الحقول وتربية الخرفان فهي ذات مصالح فلاحية ولكنها أيضا ذات مصالح حضرية لأن القرية سوق ومركز تجاري.[4] وبهذا تكون هذه المدينة في علاقة مادية جدلية

---

[1] نفس المصدر، ص:211

[2] Ali Oumlil, Ibn Khaldoun et la société urbaine, in la ville arabe dans l'Islam, C.E.R.E.S. 1982.

[3] PierreGéorge, *Urbanisme et société*, Encyclopédia Universalis 2003
Pendant plus de vingt siècles, dans les pays de la Méditerranée et en Europe, l'urbanisme a été l'expression d'une société et d'une économie à base de rente foncière, concentrée et exploitée par les maîtres du sol, enracinés dans leurs villes, symboles de leur puissance, garanties de leur sécurité, ateliers de leur ingéniosité et de celle de la classe marchande, née à l'ombre du pouvoir.

[4] ,Bouhdiba (A), *A la recherche des normes perdues*, Tunis, M.T.E. 1973, P :34

مع محيطها الريفي ومجالها الحيوي فترتبط به وتربطه بها فمنه تستمد أسباب وجودها إذ هي، في هذه الحالة، نتاج له وهي في خدمته إذ توفر ورشها ما يستحقه فلاحو تخومها من أدوات الفلح ويثقف الفلاحون تلك الأدوات حتى تصبح لهم حاجة لا غنى لهم عنها وبذلك تتحكم المدينة بالريف وتدريجيا تكبر المدينة وكلما كبرت اتسعت الشقة بينها وبين أصلها (الريف) فتشكل طبقة أرستقراطية، مثلا، يخضع لبروز أنشطة ريعية يثمر تراكما أوليا يستثمر في تسخير الباحثين عن الرزق سواء من غير ملاك الأرض أو من المزارعين الصغار الذين يعرضون قوتهم في غير وقت عملهم الفلاحي. وتدريجيا تتشكل طبقة من الكادحين الذين يختصون في عرض قوتهم العضلية فيستعملون في كل ما يخطط له الأرستقراطيون الذين يقودهم منطق عامل الربح إلى توسيع مجالاته. ثم تبرز حاجتهم إلى ما فوق تشغيل عارضي عضلاتهم وهو التحكم بهم. فتكون السلطة التي تتحكم بالمدينة وهي عامل رئيسي في تطورها. وتحيلنا هذه مسألة على ما ذكرناه في بداية هذه المقاربة مما أسميناه المبحث الأول فمنذ هذه المرحلة لن يكون نمو المدينة خاضعا لتفاعل العوامل الداخلية.

هذا التحليل الاقتصادي لظهور المدينة يتمتع بمصداقية علمية لا يرقي لها الشك لأنها تنطلق من الواقع المعاش وهي لا تزال إلى حد الآن صالحة لشرح ظهور القرى وتوسعها إلى مدن. وبتطبيق هذا التحليل على البلاد التونسية يبرز أن القرى التي تطورت مع موجة التحضّر توسعت وصارت مدنا تشكلت حول النشاط الاقتصادي وحسب نفس السياق ونفس التخطيط إذ يشقها طريق رئيسي عادة ما يكون هو المعبد الرئيسي بالمنطقة والذي يربط المدينة (القرية سابقا) ببقية المدن بالبلاد. ذلك أن هذه المدن أنشئت نواتها في شكل صفين من الدكاكين يمثلان حدي مساحة السوق الأسبوعية (من الشمال والجنوب مثلا) والناحيتين الباقيتين يمثلان مدخلي السوق وامتدادا للطريق الذي أسس السوق على حافتيه إن كان الطريق موجودا سابقا أو هو مشروع الطريق الذي من المفروض إيجاده قصد التواصل مع المناطق الأخرى. وهذه ظاهرة لا تختص بها البلاد التونسية إذ يتحدث عنها أيضا فريديريك جيرو في البلدان الافريقية[1] كما أن المستقرين الأوائل بها كانوا من فلاحي المنطقة. يقول ابن خلدون" إذا فتشنا أهل مصر من الأمصار وجدنا

[1] Frédiric GIRAUT, *Les racines et le réseau : Les petites villes dans la transition territoriale ouest africaine*. In '' *Villes et campagnes dans les pays du sud*'' Edition KARTHALA , Paris,1999.

أولية أكثرهم من أهل البدو الذي بناحية ذلك المصر وفي قراه، وأنهم أيسروا فسكنوا المِصر وعدلوا للدعة والترف الذي في الحضر"[1]

وقد يحدث أن تكون النواة الأولى للقرية ضريح الولي الصالح ولكن من الخطإ اعتباره هو سبب التجمع في ذلك المكان فالولي الصالح ميتا ودوره في اللاوعي الجماعي حماية الموتى من ذلك نجد حول ضريح الولي أو بجانبه مقبرة يدفن فيها الأموات[2]. ولا يتحول مقام الولي أو ضريحه إلى نواة القرية إلا إذا وجد إلى جانبه نشاط معيشي و الدليل على ذلك وجود قرى لم تنشأ حول أضرحة مثل قرية أولاد حفوز (ولاية سيدي بوزيد) الشراردة (ولاية القيروان). كما توجد أضرحة لم تتحول إلى نواة قرية.

ب/التحضر: سيدي بوزيد مثالا:

طبعا " كل حادث من الحوادث ذاتا كان أو فعلا لا بد له من طبيعة تخصه في ذاته وفيما يعرض له من أحواله[3] " أي طبيعته ومسبباته وهي عوامل نشأته ودوافع تواصله وهي عوامل السياق (processus) الذي ينخرط فيه ويتحكم في إيقاع سرعته واتجاه حركته. وعوامل إيقاع السياق تتجدد وتندثر أو تقوى حسب المتغيرات التي تشهدها طبائع العمران. فالقرية تتحول إلى مدينة بتفاعل العوامل الاجتماعية للمنطقة وما ينجر عنها من مستجدات داخل القرية أو حولها خاصة على مستوى انتحال المعاش وما يحصل من إنتاج فائض.

ولنحقق هذا نأخذ مدينة سيدي بوزيد لنبحث في مدى تطابق ما قلنا مع الواقع. قلنا أن التحضر ثمرة تحول في طبائع العمران فما هو هذا التحول الذي عرفته جهة سيدي بوزيد؟

سيدي بوزيد والمعتمديات التابعة لها. فكل من هذه القرى بنيت على حافتي أحد الطرق التي تربط صفاقس بقفصة(وهذه حال: سيدي بوزيد، بئر الحفي، سيدي علي بن عون، المكناسي، بوزيان، الرقاب، السعيدة) أو صفاقس بسبيطلة (وهذه حال لسودة، فايض، أولاد حفوز) كما أن أول من قطن بهذه القرى كان من فلاحي المنطقة وهذا يحقق ما ذكرته سابقا لابن

---

[1] عبد الرحمان ابن خلدون، المقدمة، ص: 214

[2] هذا ما نلاحظه عند زيارة أضرحة الأولياء في قرى وأرياف البلاد التونسية

[3] عبد الرحمان ابن خلدون، المقدمة، ص: 58 و.

خلدون. واختيار المكان، حافة الطريق يجد تفسيره في عنصر خارجي وهو تجار من صفاقس نشطوا في المنطقة منذ أواسط القرن 19 [1].

أما الاستقرار بهذه القرى فإنه نما مع متغيرات أدت إلى ضعف القبيلة كهيكل اجتماعي وكمؤطر للوجود الاجتماعي وخاصة تلك التي تمس ضرورتي الوجود التي كانت تصقل شخصية الفرد بما فيها تصوره للكون وعلاقته بالمحيط الطبيعي وسلوكياته. وقد تم هذا التخلص تدريجيا في إطار ما يعرفه كل مجتمع من تغير نتيجة تفاعل عوامله الداخلية في ما بينها أو مع عوامل خارجية. وأهم العوامل التي أدت إلى إضعاف العقلية القبلية بسيدي بوزيد التعليم، العمل بالخارج، سياسة الدولة والتقسيم الإداري.

1/ التعليم:

انتشار التعليم في فترة ما بعد الاستقلال يعد من أهم عوامل التغيير الذي أوجد وعيا غير محكوم بالعقلية القبلية، خاصة مع معاهد التعليم الثانوي التي جمعت ثلة من شباب المنطقة في معاهد بها مبيتات جعلتهم يتكونون ويتبادلون الآراء بعيدا عن سلطة العائلة والقبيلة خاصة وأن ظروف التنقل كانت صعبة وهو ما يجعل تلاميذ المعاهد يقضون مدة طويلة دون الرجوع إلى أهلهم وهكذا تتوفر لهم مدة زمنية كافية لتناسي عقلية العائلة أو على الأقل للوعي بالاختلاف بين تفكير أهله وما يكتشفه في المعهد خاصة مع تحمس الأساتذة عندها تونسيون وأجانب لإنجاح ذلك التحول (طبعا هذا لا يعني أن لكلى الطرفين نفس الأهداف).

لقد أصبح المعهد في تلك الحالة عامل تغيير واقعي يمتلك أسلوبا منهجيا وإرادة يسعى إلى دفع ميزته العقلية، العلمية لأقصى حد بتقوية اندماجه وإدماج دوره في الصراع ضد العقلية القبلية. فالتنازع كما يعرفه ألان توران هو " علاقة تضاد بين وحدتي فعل أو أكثر تسعى أحداهما للهيمنة على المجال الاجتماعي لتفاعلهما"[2] وهي صورة للصراع الطبيعي داخل المجتمع يمكن أن نلخصها بكل بساطة بالصراع بين عوامل التغيير وعوامل المحافظة وهذه حقيقة كل مجتمع إنساني يمثل حالة عمرانية ويندرج دور المعهد عندها في هذا المجال فتنشط عوامله دافعة نحو التغيير لكن لا تحقق خطواتها إلا

---

[1] يذكر محمد الفخفاخ أنه ومنذ عشية الاستعمار جعل ضعف التجارة البحرية مدينة(صفاقس) تتوجه أكثر فأكثر نحو الجنوب خاصة الجريد والوسط.

[2] Alain Touraine, *Conflits Sociaux*, 2003 *Encyclopédia Universalis 9*

إذا تمكنت من أن تصبح قوة دفع تنخرط في النسيج الاجتماعي وفي ترابط وحدات الفعل التي تكوّن عناصر النظام (système) الاجتماعي.

2/ **الهجرة:** لعبت الهجرة للعمل بالخارج خاصة في فرنسا[1] دورا مهما ساعد أبناء المنطقة على معايشة ثقافة أخرى والتعامل مع ممارساتها فأحدثت عقلية تغييرية لم تحدثها العوامل الداخلية التي تعاني من عقم ناتج عن ركود الحالة العمرانية. كما أحدثت، خاصة، اكتساب مهارات مكنتهم، بعد العودة، من فتح ورشات مثلت مصادر رزق جديدة زادت في التخلص من سلطة القبيلة أو العائلة الممتدة ذلك أن الاستقلال بمورد الرزق يخلق صورة جديدة للعلاقة بالآخرين وقد كان للهجرة دور كبير كمورد رزق منذ المخطط الاقتصادي الأول« في خلال المخطط الاقتصادي والاجتماعي الأول (1962-1971) ازداد عدد السكان القادرين على العمل بما يزيد عن نصف مليون (678 ألف) شخص إلا أن عدد مواطن الشغل المحدثة خلال العشرية لم يتجاوز (1350) وكانت ظاهرة الهجرة إلى أوروبا وليبيا قد استوعبت 212 ألف مهاجر، ولو لا ذلك لكانت الأزمة أكثر تعقيدا » [2].

3/ سياسة الدولة والتقسيم الإداري:

قد يتساءل البعض عن عدم إدراج التقسيم الإداري كأول عامل تحضّر والسبب في ذلك في ما نرى أن التقسيم الإداري قديم في المنطقة فخلافا لبقية مناطق المغرب العربي يعتبر المجتمع التونسي(إفريقيا) الأكثر خضوعا للسلطة المركزية قبل جيرانه في المنطقة وما ذلك ولاء للسلطة وإنما لأن تضاريس المنطقة لا تمكن القبائل فيها من التمترس خلفها والاحتماء من أعوان الحاكم[3] .

---

[1] طبعا كانت هجرة أبناء المنطقة إلى ليبيا أكبر من هجرتهم إلى فرنسا لكن كعامل تثاقف كانت الهجرة إلى فرنسا أقوى.

[2] خميس طعم الله التنمية والتشغيل والهجرة، دراسات دولية عدد: 22.

[3] وظحنا هذه المسألة أكثر في الرسالة التي أعددناها لنيل شهادة الدكتوراه. ولنا في هروب أولاد عزيز إلى طرابلس مثالا جيدا، فلو كان جبل بوهدمة يحميهم من حملات الباي ما كانوا ليهربوا. وأما قولهم في الرسالة التي كتبوها من ملجئهم في طرابلس إلى الباي فإنها لم تكن علامة ولاء كما يقول الدكتور عبد الباقي الهرماسي Hermassi(E), *ETAT ET SOCIETE AU MAGHREB*. 1975, Paris, Editions Anthropos, P : 61. فقولهم للباي، في رسالتهم له، أنهم أبناؤه وأنهم هربوا حتى لا يرفعوا السلاح في وجهه قول فيه مواراة ولا يعبر عن حقيقة الموقف إذ لو استطاعوا

إلا أن هذا لا ينفي أن السلطة الحديثة عملت على جعل الرحل يستقرون ويخضعون لإدارتها وذلك في إطار تطوير الشبكة الإدارية للدولة الوطنية التي لم يكن الاستعمار قد طورها. إذ لا يمكن الحديث عن الدولة الحديثة مع وجود مجموعات من السكان لا يمكن تحديد وجودها لتنقلها المتواصل. وبذلك تمثل أول اهتمام الحكومة التونسية بالمنطقة، سيدي بوزيد كما بغيرها، في خلق مواطن رزق هي أشبه بمنح إعانات فقد كانت الحضائر تتمثل في العمل على حفر سدود ترابية شبه منعدمة الفائدة إلا على المستوى النفساني إذ ربما كان من فوائدها جعل الإنسان ينكب على الأرض ويقوي علاقته بها. وكان الأجر الذي يتقاضاه العامل لا يتجاوز 250 مليما وكمية دقيق في اليوم يتقاضاها كل 15 يوم ولم يكن العمل متواصلا. إذ ينقطع بعد نصف شهر وعلى المستفيد أن يسعى مجددا للحصول على فرصة أخرى كان هدف السلطة إضعاف القبيلة فالرجوع للدولة التي كان يمثلها المشرف على التشغيل قصد الحصول على الرزق يجعل الولاء لها أشد من الولاء للقبيلة. كما شجعت

أن يواجهوا جنوده لفعلوا. وما تحتفظ به الذاكرة الجماعية من عداوة السلطة المركزية أقوى من كل القراءات ومن ذلك ينقله نجيب بوطالب، (القبيلة التونسية، كلية العلوم الانسانية والاجتماعية، تونس، 2002. ، ص:22) عن الحفناوي عمايرية" يقول أحد الشعراء الهمامة:

نجـع أولاد عزيــز تـسمـع لـيـه دريـز

مـا يـحـمـلـش الـذل هـل الـبـاي الـطـحـان

نـاوي يــغــز الـبـل"

من الصعب اعتبار هذا النص عربون ولاء. وإنما هو تعبير عن ما وصلت إليه الحالة بعد تداول الاعتداء على القبيلة من طرف السلطة المركزية قصد إخضاعها خاصة ما سيفعله الباي إبان حركة 1864 التي قادها علي بن غذاهم والتي كان من نتائجها استفحال الاختلافات بين القبائل الذي كان قد زرع خاصة منذ الصراع بين علي باشا وحسين باي ثم دخول الاستعمار وانعدام " دعوة"، بالمفهوم الخلدوني، توحد القبائل كل هذا أضعف القبيلة أكثر مما هي عليه، ونظرا لعدم القدرة على مقاومة السلطة المركزية مارست القبيلة المداراة ومن ذلك الرسالة التي كتبها ميعاد أولاد عزيز من طرابلس إلى الباي، تعلن ولاءهم للباي ولكنهم في وجدانهم الجماعي يسبونه كما أسلفنا. ومن هنا كان الرضوخ للإدارة المركزية. ثم كانت الحركة الوطنية فانخرط فيها أبناء القبيلة مع عدم تبلور حس وطني واضح وإنما كان الدافع الأكبر مقاومة الكافرين فكان دور الانتماء الثقافي هو المحرك والمحدد. ولما كان الحزب الدستوري هو الذي قاد حركة التحرر الوطني انخرط فيه أبناء القبيلة بمفعول الانتماء الثقافي كما ذكرنا.

السلطة على الاستقرار ببناء تجمعات سكنية أطلق عليها اسم" ملاجئ " وهذه سياسة اتبعت من جل الدول الساعية لمقاومة ترحال القبائل من ذلك ما يذكره هشام بن إبراهيم العمار عن توطين البدو في السعودية[1]. كما يقول فريديريك جيرو أن العامل الإداري بدا ولزمن طويل كمحدد في أصل المدينة الغرب افريقية وفي حركيتها الداخلية[2]. إلا أن نفس الباحث يقلل بعد ذلك من أهمية العامل الإداري في التحضّر.[3]

بالمحصّل لعب إخضاع أبناء المنطقة للسلطة دورا مهيئا لتحضّرها وخاصة بتشجيعهم على الاستقرار وهو الشرط الأول كما أشرنا لبروز المدينة. أما القول بأن الدولة هي التي حضرت المنطقة فيبدو أمرا مبالغ فيه خاصة إذا ركزنا على« التجهيزات والتمويلات العمومية في الميدان الخدمي أساسا[4] » إلا إذا كان المقصود التركيز على الدور الذي لعبه التعليم بمشاركته كما أشرنا سابقا في التخلص من العقلية القبلية.

خلقت العوامل السالفة الذكر، مجتمعة، عقلية جديدة كان من انعكاساتها اكتساب شخصية تتدبر فتفكر وتنجز دون أن تكون في حاجة للرجوع لكبار العائلة (حكماؤها) بل ربما يصل الأمر إلى العمل بعكس ما أشاروا به نظرا ليسوا أصحاب دراية بالمحدث من شؤون الحياة. هذا التحول لا يتم دون

---

[1] هشام بن إبراهيم العمار، سياسة التعليم العالي ودورها في تنمية المجتمع السعودي، رسالة مقدمة لنيل شهادة الدراسات المعمقة، بكلية العلوم الانسانية بتونس، 1999 ص:39.

[2] فريديريك جيرو ، مرجع سابق ص: 215

[3] « L’octroi d’une fonction politico-administrative à cité procède d’une double logique : d’une part assurer un maillage régulier et de plus en plus fin du territoire et, d’autre part, pourvoir en infrastructure et en institutions de gestion les centres urbains émergents. Avec sa banalisation et la paralysie financière des pouvoirs publics, le fait administratif devient un facteur d’urbanisation parmi d’autres, sauf dans les régions encore peu urbanisées où il peut toujours être un des moteurs du décollage urbain.

Longtemps pourtant, le fait administratif est apparu comme déterminant dans la genèse de la ville ouest africain et dans sa dynamique ultérieur. Les fonctions commerciales, dans le cadre de l’économie de traite, et les fonctions sociales, scolaire et sanitaires se sont greffées sur le dispositif lâche de quadrillage du territoire de l’administration coloniale. ce ci est particulièrement vrai pour l’empire coloniale français, …. » P:215.

[4] حافظ ستهم، مقدمة لـ" العمران والتنمية في تونس" عمل جماعي شارك فيه كل من: منصر الرويسي، حافظ ستهم، سكينة بو راوي، المنجي بشير، خسين الديماسي، ورفيق بوخريص. نشر المعهد الأعلى للتربية والتكوين المستمر. 1986.

تحول آخر يتحقق على مستوى عالم الرموز نتيجة الاحتكاك بالثقافات الأخرى وتبني قيم غير تلك التي تُربي عليها القبيلة. فالقبيلة نمط اجتماعي والتخلص منه ولو نسبيا يعني التخلص وبنفس المقدار من عالم مثلها. فالملاحظ أن هذا التحول لم ينتج عن تفاعل عوامل داخلية وإنما هو نتيجة تثاقف مع عوامل خارجية في ظرف ما عادت القبيلة قادرة على الصمود أمامه خاصة وأنها كانت تمثل حالة ضعف منذ مدة طويلة. لقد رأينا أنها صارت منذ القرن 19 عاجزة حتى على ضمان أمنها.

أوجدت هذه العقلية الجديدة جيلا من أبناء المنطقة تخلص من عقلية القبيلة ووعى بمرحلته لو نسبيا فعمل على التعامل مع الرأس المال الصفاقسي الذي كان مهيمنا فحتى بداية السبعينات كانت جل الدكاكين المهمة بسيدي بوزيد ملكية صفاقسية. واستثمر ما تحقق في بلدته فوجدت ورش ونشطت حركة تجارية ثم أعلنت سيدي بوزيد ولاية وانتشرت بها الورش والمؤسسات الحكومية: ولاية، معتمديات، تعدد معاهد ثانوية، إدارات: بلدية، مراكز أمن (شرطة وحرس وطني)، حماية مدنية، إدارات..........مع ما يعنيه هذا من وظائف مثلت فرص عمل تسارع الناس على الالتحاق بها فتحسن دخل الملتحقين بمهن مكنت أصحابها من مرتب قار مهما كان ضعيفا لم تكن تضمنه لهم أحوالهم خاصة أن المنطقة لم تكن تعرف إنتاجا فلاحيا وافرا ومنتظما نظرا لعدم انتظام كمية الأمطار.. وبعثت خاصة بعض المشاريع الفلاحية التي ربطت أبناء المنطقة ببعض المدن كمزوّدين لها. لقد أصبحت ولاية سيدي بوزيد" توفر 25 % من مجموع إنتاج الخضر[1]" واستقر المستفيدون من هذه الحركية الاجتماعية بالمدينة عندما أصبح التحضّر هدفا في حد ذاته وترسخ في العقلية الجماعية ربط بين المدينة والحياة " الأرغد". صار الشباب يبحث عن وضعية أكثر رفاهية من وضعية البادية. وهذا يعني أن الأنشطة الفلاحية لم تعد كافية لتلبية تلك الحاجيات وإلا لما كان من موجب للاستقرار بالمدينة فبرزت الأنشطة الموجهة لإنتاج ما يشبع تلك الحاجيات الكمالية مثل صانعي الحلويات، بائعي أدوات التجميل، مطهري المنازل، البناؤون، المغنون... يؤدي هذا الوضع الجديد إلى بروز علاقات لا تضبطها اللحمة الآلية على إيقاع التماثل مع أفراد القبيلة أو العرش أو العائلة والإحساس من خلال حاجاتهم ووجدانهم الجماعي وإنما تحددها اللحمة

[1] بوجمعة المشي، استغلال المجال الريفي بجهة سيدي بوزيد، الندوة الثالثة لقسم الجغرافيا بكلية العلوم الانسانية والاجتماعية بتونس (9-11 مارس 2000)

العضوية والمبنية على الاختلاف[1] . فالمدينة فضاء اجتماعي تحكمه علاقات تعرف نمو الوعي بالذات الذي ينمو تدريجيا إلى حد التظليل على الوعي الجماعي وترك مساحة للوعي الفردي[2]. بعد ذلك لن يحقق الفرد وجوده في التماهي مع الشخصية الأساسية للمجموعة التي ينتمي لها وإنما يحقق وجوده بالوعي بذاته ويرتبط بالمجموعة التي تساعده في ذلك وهي عادة المجموعة التي يربطها بها تحصيل معاشه. لا يمكن أن نفهم من هذا الفرد يفقد تماما العلاقة بالآخرين. فالانخراط في اللحمة العضوية لا يعني نهاية الوعي الجماعي وإنما هو يترك مساحة للوعي الفردي. ففي المدينة تضعف العلاقات المبنية على القرابة الدموية دون أن تنتهي إذ المدينة تنشأ طبيعيا من تحسن أحوال البدو المزارعين الذين يتوفر لهم الكمالي بعد الضروري فيتوسعون في البنايات وطلب الخدمات فتنشأ الحاضرة في تلك المنطقة التي عرفت الوفرة وهو ما يعني أن ساكنوها ليسوا غرباء على الفضاء الذي يحويها فتكون العلاقات فيها امتداد للعلاقات الدموية وبذلك يكون الحي عبارة عن عرش. إلا أن أسباب تحصيل الرزق تجعل العلاقات المصلحية مثلا تطغى على العلاقة القبلية المحضة، أي الخالية من مصلحة ومع تطاول الزمن والاستقرار في المدينة يغلب الانتماء الحرفي وينسى الانتماء الدموي فتبرز العلاقات الحرفية.
ولا ينظر للإنتاج على أنه بضاعة تعرض وإنما على أنه عملية إنتاجية مركبة لها قوانينها الخاصة منها قوانين الربح التي تنطلق كتسلسل يوجهه البحث على مزيد من القيمة المضافة وعن التعاون بين مختلف القطاعات المنتجة وما يمكن أن يتكامل منها. ويدفع ذلك إلى تجاوز تلبية الحاجة الداخلية والبحث عن أسواق أخرى ويكون التنافس بين الصناع دفعا نحو مزيد الإتقان فتنمو الحضارة نتيجة تفاعل العوامل الاقتصادية، الثقافية والتقنية.

ينتج إذا تطور المدينة عن تفاعل عوامل داخلية وأخرى خارجية تتحول إلى آليات تحريك للحالة العمرانية. فإن خضعت للصنف الأول، أي العوامل الداخلية، من الآليات فإنها لا تكبر إلا بقدر ما تتطلبه حاجيات أطرافها وعلى قدر ما تقيمه من علاقات مع القرى والمدن الأخرى. فمادامت تتعامل مع أطرافها فقط لا يمكن أن تتسع ورشاتها لأكثر مما تتطلبه الأنشطة الفلاحية بتلك الأطراف وهذا يعني ضيق مجال الطلب وتضيق بذلك إمكانيات العرض وبالمحصل لا تتطور تلك الورش بل لا تستقل إذ ضيق مجال العرض

[1] DURKHEIM (Emile), *De la division du travail social*, Paris, P.U.F.,1960. P :100

[2] المرجع السابق ص:101.

يؤدي إلى قلة الإنتاج فتعجز المداخيل عن توفير المعاش لذلك كثيرا ما يكون الحرفيون القائمون عليها يمتهنون الفلاحة أكثر من نشاطهم الحرفي كأن يكون أحدهم فلاحا ستة أيام ويوم السوق، وهي عادة أسبوعية، يتحول إلى حدّادٍ مثلا. ولذلك لا يتطور تقسيم العمل ويغلب على النشاط الأسبوعي بتلك القرية نشاط تجاري هو أشبه بالمقايضة إذ يبيع الفلاح بضاعته ليشتري بضاعة أخرى. وقد تستمر هذه الحالة إلى قرون ولنا في قرى الساحل التونسي، وبعض القرى الأخرى سواء بضواحي العاصمة مثل أريانة أو القريبة منها مثل طبربة، أكبر دليل فهي تعود، في أغلبها، إلى العهد الروماني ولكنها بقيت مجرد قرى صغرى. وسر استمرارها تحقق توازن داخلي بين أطرافها وخضوعها لتماثلية ناتجة عن ضعف الحركة العمرانية. فالخضوع للمتوارث(التماثلية) وتوازي الأطراف يغيّب إمكانية بروز طرف يسعى للهيمنة والاستفادة من تسخير الآخرين. هذه الحالة تجعل القرية بعيدة عن الهزات الاجتماعية إلا أنها تحرم من أهم مشعلي الحالة العمرانية فتسكن بردها بالمفهوم الذي يعطيه هرسكوفيتس للمجتمعات الباردة.

أما إذا تدخلت عوامل خارجية فإن توسع القرية النواة يحولها إلى مدينة ويكون هذا التدخل تثاقفا أو انثقافا فلو أخذنا مثلا سيدي بوزيد عندما كانت تسمى " قمودة" ما وجدنا سوى بعض دكاكين لا يتجاوز عددها عدد أصابع اليد الواحدة. لأن سكان أطرافها ظلوا ولمدة متأخرة (إلى فترة الستينات) شبه رحل يعتمدون " التنقلات الفصلية" كما يسميها حافظ ستهم[1]. يرتحلون صيفا إلى الشمال للعمل في الحصاد وفي الشتاء يتوجهون إلى الجنوب لكسب الرزق من جني الزيتون. وحتى عندما التفت إليها الرأسمال الصفاقسي، كما أشرنا، لم يكن لذلك تأثير ذو شأن لأن ذلك النشاط لم يكن سوى بحث عن ربح طفيف مما جعل أصحابه في كثير من الأحيان يشتغلون في الريف وذلك بالانتصاب في دكاكين بسيطة جدا يعرضون بها بضاعتهم التي يجلبونها من صفاقس لذلك كانوا ينشؤونها على حافة الطريق وكانت تسمى براكة•[2]. أما العوامل الأخرى والتي سبقت الإشارة لها وهي : التعليم و الاختلاط بالآخر خارج القبيلة/ الإطار. والتي مثلت عوامل تشكل نواة المدينة، أي عوامل تحريك الحالة العمرانية، فهي وإن كانت داخلية فقد تولدت فيها الحركة على إثر تفاعلها مع عوامل خارجية أي أن ظروف الولادة كانت التثاقف وهو

---

[1] حافظ ستهم، المصدر السابق.

[2] •يبدو أن أصل اللفظة فرنسي حيث كانت هذه الدكاكين هشة جدا وكثيرا ماتكون من خشب و من هنا جاءت تسميتها فاللفظة الفرنسية تعني لناء من خشب.

في حقيقته وحدات عمل لا تربطها علاقة صراع وإنما تتفاعل في عملية تكاشف وتعارف تؤدي إلى تأثير وتأثر وطبعا، وخضوعا لقانون الاختلاط الذي تحدد العوارض الذاتية لكل طرف من أطرافه عملية الصبغ، يكون ضعيف الأسس هو الأكثر تقبلا في حين يكون ذو الأسس الأقوى هو المؤثر. والحالة التي كانت عليها المنطقة كما أسلفنا تجعلها قابلة للتأثر أكثر من قدرتها على التأثير. فكانت الحالة العمرانية تتسم بتثاقف أدى إلى تشكل المدينة.

لكن قد يحدث أن يوجه نشاط الحالة العمرانية لغير مجالها الاجتماعي، فعندما يقول حافظ ستهم «إلا أن الوضع السكاني للبلاد تطور شيئا فشيئا مع انتصاب الحماية الفرنسية وسار نحو الاستقرار[1]» فهل يعني هذا أن مصلحة المنطقة كانت في انتصاب الحماية؟ قطعا لا وهل يعني هذا أن الحماية كانت تبحث عن مصلحة أبناء المنطقة؟ طبعا لا وإنما هو تقاطع مصالح في المجال الاجتماعي للحالة العمرانية. فسلطة الحماية كانت تسعى لخدمة مصلحتها ولا تستطيع أن تحرم أهل البلد ما يمكن أن يستفيدوا منه مما أوجدوته. وبالتالي لا يمكن اعتبار ما تحقق في المجال الاجتماعي (أهل البلاد) موجها له فالاستعمار كان يسعى لمصلحته الخاصة وإن استفاد أهل البلاد مما أنجز. لذلك قلنا سابقا أن النشاط الذي تتسم به الحالة العمرانية مع وجود عوامل تفعيل خارجية قد يكون موجها للخارج.

و ما يذكره بوجمعة المشي[2] من تزايد ما توفره سيدي بوزيد من خضر للبلاد التونسية لا يظلل حديثه عن انعكاسات سلبية على الموارد الطبيعية (ضعف الموارد المائية و االتعرية الترابية)[3] وهي مخاطر تهدد أبناء المنطقة في مستقبل رزقهم من ناحية كما أنها تشير من جهة أخرى إلى أن هذا التحضر هش. فتشكل القرية ثم تطورها إلى مدينة لابد له من مقومات الاستمرار.

ب:الحاضرة السياسية:

ربما يتساءل البعض لماذا لا تتفق الصورة التي رسمناها للنمو الطبيعي للمدينة مع جل الدراسات التي خُصّصت للمدينة في الحضارة الإسلامية التي تجعل المسجد محور المدينة الذي يدور حوله أطراف باقي مكوناتها؟ يحيلنا

---

[1] حافظ ستهم، نفس المصدر.
[2] بوجمعة المشي، المرجع السابق.
[3] بوجمعة المشي المرجع السابق.

هذا السؤال إلى جانب آخر من التحضر وهو المدينة التي تبنى بقرار سياسي. وهو الشكل الثاني لبروز المدينة. وذلك عندما تشيد الحواضر لهدف آخر ولأسباب أخرى أي عندما لا تكون ثمرة لوفرة إنتاج حصلت في المجال الفلاحي المحيط بها وإنما تنتج عن قرار سياسي وقد عرف هذا قديما عندما كان المستحوذ حديثا على السلطة يفضل الامتياز بعاصمته التي يبنيها على الشكل الذي يلبي هدفه سواء كان التباهي، مثل القاهرة المعزية، أو المزيد من التحصن ، مثل مراكش التي شيدها يوسف ابن تشفين زعيم المرابطين عندما أحس أنه قادر على بناء عاصمة له وكان مستعجلا على الاستقرار[1] فبدأ ببناء قلعة يتخذها حصنا ومسجدا يكون منطلقا ورمزا لدعوته واتخذ تلك المدينة مركز دعوة وانطلاق الحملات العسكرية. أو الانطلاق للغزو، مثل القيروان التي بناها عقبة كمعسكر ينطلق منه لمواصلة فتوحاته. كما يتفنن صاحب السلطة في تشييد البنايات قصد التباهي وتخليد ذكره وهو ما نراه اليوم من تشييد بعض البنايات مثل مسجد الحسن الثاني بالمغرب.

كما نشاهد في أيامنا مراكز حضرية تبنى بقرار سياسي سواء في إطار تجديد المدينة العتيقة التي لم تعد تتسع لأنشطة المجتمع الحديث. أو التجمعات التي بنتها بعض الحكومات بهدف توطين الرحل أو تسهيل إدماج المجتمع في الشبكة الإدارية للسلطة.

إلا أن هذه المراكز لا تطور إلا إذا ارتبطت بالمشروع السياسي للدولة كأن تجعل منها عاصمة أو قطبا صناعيا أو مرفأ تجاريا مهما. لذلك كثيرا ما تفقد تلك المراكز بريقها لأن الدولة لا تستمر في الاعتناء بها بل منها ما ينتهي إلى الخراب بسرعة إذا لم يندمج ذلك المركز الحضري في محيطه الريفي بأن يرتبط معه في علاقة مصالح متبادلة تجعل كل منهما في خدمة الأخر وإذا تخلت السلطة على الاعتناء به. وقد يحصل هذا بعد فترة من تمركز " الدولة الحديثة " ففي بداية توليه السلطة يسعى الحاكم لإرضاء الناس ويتلذذ تغنيهم بمزاياه خاصة وأن استقلال جل الدول الرازحة تحت الاستعمار تم في فترة كان الخطاب السياسي الشعوبي(Populisme) لا يزال يجد من يستمع إليه ويتجاوب معه. وبعد تلك الفترة يكون صاحب السلطة قد اطمأن على كرسيه ولم يعد في حاجة لصراخ العامة ويترفع عليهم بما يوفره له المنصب الجديد و يتنكر حتى لرفقاء الطريق، ويهتم بالعمل على المحافظة

[1] A. Megherbi, La pensée sociologique d'Ibn Khaldoun, Alger, SNED, 1977 p. 192

على مكانه على سدة الحكم. وقد بين ابن خلدون أن الحاكم يكون أقرب لمشاكل العامة في بداية عهده ثم يبدأ ذلك الاعتناء في الأفول وبذلك تصغر أمامه مسألة الاهتمام بتلك المراكز التي سبق وأن بناها علما وأنها في أغلب الحالات في حالة سيئة خاصة وأنها بنيت في بداية الاستقلال عندما لم يكن للسلطة موارد مالية مهمة.

وهذا ما يفسر ما يشير إليه فريديريك جيرو من تراجع الحتمية الإدارية (Le déterminisme en recul administratif)[1] في العملية التحضيرية. ويتحدث هذا الباحث على تنصل الحكومات من تعهداتها

III/مقومات استمرار الحضر في نظر ابن خلدون :

يمكن أن نلخص مقومات استمرار نمو المدينة، في التحليل الخلدوني في خمسة عناصر:

1/ نمو الصنائع:

الحضارة أحوال زائدة على الضروري، ولذلك تتطلب إنتاج الرفه " ويقع فيها عند كثرة التفنن في أنواعها وأصنافها، فتكون بمنزلة الصنائع، يحتاج كل صنف منها إلى القوامة عليه، المهرة فيه. وبقدر ما يتزيد من أصنافها يتزيد أهل صناعتها، ويتلون ذلك الجيل بها ومتى اتصلت الأيام وتعاقبت تلك الصناعات، حذق أولئك الصناع في صناعتهم، ومهروا في معرفتها."[2] وهذا ما يحدث اليوم عندما تكون الورشات والتي تتحول مع تطورها إلى مصانع ويؤدي ذلك بالتالي إلى تنوع المنتجات ومن ذلك تطور التجارة فالأنشطة الاقتصادية تترابط مع بعضها وتفرز تراكما يضمن الاستمرارية ويربط كل الفاعلين الاجتماعيين فالمصانع توفر مواطن الشغل وتضمن بذلك دخل المتساكنين فيتمكنوا من الاستهلاك الذي يوفر المداخل للمنتج الذي يتمكن من تحسين وسائل الإنتاج وهكذا تتواجد شبكة من المصالح مهما اختلفنا في من هو المستفيد الأول منها فإننا نتفق على أنها تلعب دورا مهما في تنشيط الدورة الاقتصادية أهم عنصر لاستمرار المدينة ونموها. ومع مزيد النمو تصبح تلك المدينة جالبة للباحثين عن الرزق خاصة من المناطق الريفية فيكون النزوح الريفي الذي يزود المدينة بيد عاملة تلعب دورا مهما في تطوير الصناعة وأحسن مثال على ذلك ما عارفته المجتمعات الغربية إبان

[1] Frédiric GIRAUT , *ibid* P : 215.

[2] عبد الرحمان ابن خلدون ، المقدمة، ص: 656/657

القرن19 والنصف الثاني من القرن 20. إذ أدت الثورة الصناعية إلى بروز مدن وفرت العمل لطالبيه من القادمين من الريف وبذلك أوجد نمط الإنتاج الرأسمالي توازنا جديدا بعدما ساهم في تدمير النمط الإقطاعي.

2/ السلطة السياسية:

بناء المدن لا يكفيه ما تنتج القرية فالمدينة تتسم عادة بالبنايات الكبيرة المتطلبة لمجهود كبير وتجنيد الكثير من العمال وبما أنه كثيرا ما لا يعتبره الناس ضروريا " فلا بد من إكراههم على ذلك، وسوقهم إليه مضطهدين بعصا الملك، أو مرغبين في الثواب والأجر لا يفي بكثرته إلا المُلك والدولة. فلا بد في تمصير الأمصار واختطاط المدن من الدولة والملك"[1]. وإن كانت ضرورة السلطة السياسية للمدينة تنبع قبل ذلك من وجوبها الوجودي إذ لا يمكن أن توجد المدينة كمركز حضاري متسع دون سلطة وازعة فالمدينة تعني تساكن مجموعات متعددة لا بد لها من سلطة تنظم تعايشهم خصوصا وأن المدينة عادة ما تكون نقيضة القبيلة. تعقيدات الحياة في المدينة والعلاقات التي ينظمها التماثل والقيم المتوارثة وإنما تربطها المصالح وتبنى على الاختلاف المولد للتكامل وينظمها القانون الضامن للمصالح.

3/ الاستقرار:

يعتبر ابن خلدون الاستقرار مهما جدا لتطور المدن، فطالما السلطة السياسية مستقرة والعلاقة بين السلطان والناس متناسبة يستمر البناء الحضاري " ذلك أن الدولة والملك صورة الخليقة والعمران، وكلها مادة لها، من الرعايا والأمصار وسائر الأحوال. وأموال الجباية عائدة عليهم، ويسارهم في الغالب من أسواقهم، ومتاجرهم. إذا أفاض السلطان عطاءه وأمواله في أهلها، انبثت فيهم، ورجعت إليه، ثم إليهم منه. فهي ذاهبة عنهم في الجباية والخراج، عائدة إليهم في العطاء" فالمصانع تشتغل والتجارة تزدهر وينتج ذلك تراكما يثمر تطورا واليوم نلاحظ أن كبار المستثمرين في العالم يتجنبون دائما الاستثمار في المناطق التي لا تتسم بالاستقرار السياسي كما نلاحظ أن الأعمال الناتجة عن انعدام الاستقرار يكون أهم ضحاياها المدن لما تتعرض له من تهديم جراء العنف الذي ينتشر عندما ينعدم الاستقرار والأمن السياسيين.

---

[1] نفس المصدر، ص: 609

4/ الاستمرار:

الاستمرار دليل ترسخ عقلية ثقفها الناس وصارت لهم من طبائع العمران وعندما يثقف الناس المدينة ينصبغون بها ويتوارثونها جيل عن جيل وبذلك يفسر ابن خلدون ازدهار المدن في العراق والشام ومصر والاندلس.[1]

5/ التثاقف:

عندما تشهد الحالة العمرانية تثاقفا مع عناصر وعوامل خارجية يكون ذلك عامل إثراء لها فالتواصل بين الأمم من أهم عوامل الإغناء الحضاري.

تركيب هذه العناصر وتمفصلها يؤدي إلى نمو التحضر واستمراره. ويأخذ ابن خلدون مثله بهذا الخصوص من المغرب فيقول " وأما المغرب فانتقل إليه منذ دولة الموحدين من الأندلس، حظ كبير من الحضارة، واستحكمت به عوائدها بما كان لدولتهم من الاستيلاء على بلاد الأَندلس. وانتقل الكثير من أهلها إليهم طوعا وكرها. وكانت من اتساع النطاق ما علمت، فكان فيها حظ صالح من الحضارة واستحكامها، ومعظمها من أهل الأندلس. ثم انتقل أهل شرق الأندلس عند جالية النصارى إلى افريقية فأبقوا فيها وبأمصارها من الحضارة آثارا، معظمها بتونس، امتزجت بحضارة مصر، وما ينقله المسافرون من عوائدها فكان ذلك للمغرب وافريقية حظ صالح من الحضارة"[2] ويعود ضعف تطور الحضارة في تاريخ منطقة المغرب، شأنها في ذلك شأن جل المناطق الإفريقية إلى غياب الأسس السابقة الذكر للتحضر ففي منطقة يطبع الترحال خالتها العمرانية يصعب وجود مراكز إنتاج فلاحي يولد نواة مدينة، فالرحل لا يحولون الطبيعة ولا ولا يوجدون مراكز تتشكل فيها نواة إنتاج لتنمو في ما بعد وبحكم طبائع عمرانهم، لا يوجِدون نواة قرية، وحتى بعض المدن التي وجدت في المنطقة لما كانت ممرا لتجارة الذهب فإنها اندثرت بتحول تلك الطريق وذلك لغياب تطور اقتصادي مستقل بالمنطقة وهو الأساس الأول لنمو واستمرار المدينة. " والسبب في ذلك أن هذه الأقطار كانت للبربر، منذ آلاف السنين قبل الاسلام، وكان عمرانها كله بدويا، ولم تستمر فيهم الحضارة حتى تستكمل أحولها"[3]

---

[1] نفس المصدر، ص:716/717.
[2] نفس المصدر، ص: 660
[3] نفس المصدر، ص: 636

IV/ هيمنةالمدينة:

في إطار التحليل لخلدوني تكون هيمنة المدن على البوادي طبيعية لأهنها هيمنة التام على الناقص[1] ولا غرابة أن لم نعد اليوم في مجتمع مزدوج الرأس (بادية/ حضر) كما كان الأمر أيام ابن خلدون لقد خسرت البادية دورها السياسي الذي كانت تلعبه في المحافظة على السلطة بيد هذا أو ذاك. فاليوم صارت البادية خاضعة للمدينة في كل أنحاء العالم فالدولة الحديثة بمفهومها الليبيرالي لا تكون مع وجود بدو غير مندمجين في الشبكة الإدارية للحكومة وهو ما لا يتم إلا بإخضاع البدو للإدارة التي لا تكون إلا في المدينة مع خلايا تابعة لها في الريف. ولذلك عملت كل الحكومات على توطين البدو وحتى في الدول الاشتراكية عمل الزعماء على ربط كل خلية حزبية في الريف بخلية بالمدينة انطلاقا من مقولة أن الفلاحون ليسوا ثوريين. بل إن نمط المجتمع الحالي وأهمية المكننة والتقنية فيه وارتباطها بالتطور العلمي وتمركزه بالمدن جعل الريفيين يبحثون عن الرضوخ للمدينة لاقتناعهم أن في ذلك مصلحتهم. فكل ما يتصل بالحياة المترفة يأتي من المدينة. وحتى الوازع كدور اجتماعي لا سياسي والذي كان ينظم الحياة البدوية والذي كان بيد مشائخ البدو صار اليوم بيد أعوان الأمن المتواجدين بالقرى ويشتكي إليهم البدو في صورة حصول اختلاف بينهم. وبذلك صار أمن البدو بيد أعوان الدولة باستثناء بعض القبائل في منطقة الخليج العربي. ثم إن نمط الحياة جعل كل مرافق الحياة الرغيدة في المدينة وخاصة الخدمات مثل التعليم، الصحة، الإعانات الاجتماعية،...

في الماضي كان المرور إلى المدينة يكون نتيجة وفرة في الإنتاج وتحقق أسباب ترف أما اليوم فإن البحث عن حياة أرغد هو الذي يقود إلى المدينة. فسكان ما يسمى بالأحياء الشعبية قدموا المدينة طلبا لحياة أقل تعاسة من حياتهم في البدو.

V/ التحضر السريع الهش:

سنحاول الآن النظر في ما نعرفه اليم من تحضر من خلال ما قدمناه من نظرية ابن خلدون، مع العلم أن ما قدم هو مجرد قراءة سريعة في حدود ما يسمح به مجال المناسبة.

---

[1] نفس المصدر، ص: 269

التحضر في مجتمعنا، وفي البلدان المشابهة لنا ظاهرة اتسمت بسرعة انتشارها وكأنها تعبر عن اختلال توازن وقع فجأة في المجتمع. مما جعل هنري عزام يتحدث عن" ثورة حضرية"[1] فإذا علمنا أن نسبة التحضر في العالم تحولت من 3 % إلى 14 % خلال 120 سنة (من 1800 إلى 1920) وفي بلادنا كانت نسبة الريفيين حتى «فترة ما بين الحربين 75 % من جملة السكان عام » [2]1936و هذا يعني أن نسبة الحضريين كانت 25 % وإذا علمنا أنها وصلت % 52.62سنة 1984 تبين لنا سرعة وضخامة التحول الذي وقع.

إلا أن الملفت للنظر ليس فقط نمو نسبة التحضر وإنما أساس ظاهرة النزوح الريفي لم ينتج عن ظهور قطب صناعي في المدينة يستوعب اليد العاملة النازحة مثلما وقع في المجتمع الأوروبي. بل نتج عن ريف طارد سواء لأن الأرض اغتصبت بالنسبة لأيام الاستعمار أو لأنها لم تعد توفر الرزق لمزيد تجزئتها بين الوارثين أو بمفعول التصحر. ومهما كانت الأسباب المحصلة واحدة ريف طارد ومدينة عاجزة عن توفير ظروف أحسن[3] ولا يقتصر هذا على العواصم الكبرى بل يلاحظ نفس الشيء، وأشد، في المراكز الحضرية التي نمت أو بدأت تنمو في العشرية الحضرية وهي ما بين 1970 و1980 ولو حاولنا أن نفهم لماذا توسعت المراكز الحضرية في تلك العشرية لوجدنا أن ذلك يعود إلى:

أ/ السياسة التعليمية:

اتبعت الحكومة التونسية بعد الاستقلال سياسة نشر التعليم وشجعت عليه بشدة فحداثة الدولة جعلتها في حاجة للموظفين. جاء في المخطط الثاني (1965/1968) أن حاجة البلاد إلى الإطارات العليا والمتوسطة تقدر بـ 52 ألف لا توفر منها قدرات البلاد في التعليم والتكوين إلا 44 ألف[4]. كما مثلت المدارس والمعاهد عامل حركية اجتماعية فهي فرصة لتحسين ظروف

---

[1] هنري عزام ، التحضر والنمو الاقتصادي في الوطن العربي

[2] حافظ ستهم مرجع سابق.

[3] يقول هنري عزام، مرجع سابق، « إن التحول الحضري في المنطقة لم يسهم في تخفيف حدة الفقر بالريف، فالريفيون الذين هاجروا إلى المراكز الحضرية بحثا عن فرص عمل أدى بهم الأمر في غالب الأحيان إلى مفاقمة مشكلة البطالة في المدن وغير قادرة على الطرد. إذ فشلت حملات تجميع العاطلين وإرجاعهم من المدن الكبرى إلى مواطنهم الريفية والتي نشط فيها جهاز الأمن. »

[4] المخطط الثاني الاقتصادي والاجتماعي، نقلا عن صالح المازقي، بطالة الإطارات في تونس، أطروحة شهادة الدكتوراه. تونس 1998.

المعيشة خاصة وأن أسباب الرزق كانت شحيحة عموما كما أن سعي السلطة لإيجاد مجتمع(تحديثي) قاطع مع العقلية القبلية والثقافة التقليدية لا يكون إلا بالتعليم ولذلك عرفت العشرية المذكورة(1970/1980) طبعا مع ما تخرج قبلها عددا هاما من الموظفين الذين استقروا بالمدن واستوعبتهم إداراتها خاصة في المراكز الحضرية الحديثة. ونستنتج مما سلف أن التحضر بني أساسا على الطبقة الوسطى التي مثلت أهم إفراز لدمقرطة التعليم ذلك أن هذه الطبقة تتكون في أغلبها من الذين استفادوا من التعليم.

ب/ المشاريع الصناعية:

عرفت البلاد إبان فترة (1962/1969) التي عرفت بالتجربة الاشتراكية (وعند العامة الفترة البنصالحية إشارة إلى الوزير أحمد بن صالح الذي كان صاحب الوزن المؤثر في القرارات في تلك الفترة) وبتدخل الدولة(84 %من الاستثمارات) خلقت أقطاب صناعية على الخط الساحلي (منزل بورقيبة، سوسة، صفاقس، وقابس) وداخل البلاد (باجة، طبرقة، والقصرين) ثم كان التوجه الليبيرالي الذي كرس النمط التصديري وتشجيع الرأسمال الأجنبي(قانون 72). والخواص على الاستثمار بالبلاد « مؤكد عرفت الصناعة نموا سريعا:800 مؤسسة أنشأت ما بين 1970 و1980 »[1] فنشط الاقتصاد وحقق نموا في الدخل الخام وصل إلى 36 % سنة 1983

و رغم تقديمه لهذه الأرقام يضيف بوزيان صمود أن تدخل الدولة عجز على مقاومة الاختلال بين الجهات وأن التبعية تجاه الخارج تعمقت[2]. ويقول صالح المازقي » ما كان للمشاريع التنموية أن تنجح ببلادنا خلال العشريات السابقة لأن الاقتصاد الوطني بني على عديد الأخطاء الاستراتيجية أهمها، أنه اقتصاد متخارج مقام على الديون والهبات والإعانات الخارجية المتأتية من مختلف المؤسسات الدائنة حكومية كانت أو خاصة أما على المستوى الداخلي فإن المؤسسات الاقتصادية التي تعتبر الدعامة الرئيسية والعمود الفقري للاقتصاد الوطني لم تكن في وضعية قوة تخول لها القيام بعملية تراكم رأس المال وخلق ديناميكية ذاتية تسمح لها بالتجدّد والتوسع ما دامت هذه المؤسسات رهينة المدّ والجزر المالي الخارجي. »[3]

---

[1] Michel Durand Delga (professeur émérite àl'universitéäul Sabatietr (Toulouse)/ & Bouzaienne Sammoud (docteur d'Etat , professeur à l'université), *Afrique du Nord. Encyclopédia Universalis 9.*

[2] ibid.

[3] صالح المازقي، بطالة الإطارات في تونس، أطروحة شهادة الدكتوراه. تونس 1998

ج/ ثقافة الاستهلاك:

انتشر في المجتمع التو نسي « النمط الاستهلاكي وأدى إلى ظهور سلوكات جديدة في اقتناء الحاجيات والكماليات [1] » خصوصا مع توسيع شبكة التيار الكهربائي وما صاحب ذلك من انتشار جهاز التلفاز بما يبثه من ثقافة استهلاك وهي متصلة بالترف المقترن بالمدينة مما ينمي الرغبة في التحول إليها. وشجع هذا كثيرا على التحضر خصوصا مع سياسة تسهيل القروض التي اتبعتها المؤسسات البنكية. وبالأخص القروض السكنية والتي ساعدت الناس على تجاوز أكبر عقبة أمام من يرغب في الانتقال إلى المدينة

و بالمقابل لعناصر الدفع نحو التحضر نجد علامات هشاشة هذه الظاهرة. لقد ذكرنا سابقا خمس أسس لاستمرار الحواضر وتطورها وهي: الازدهار الاقتصادي، السلطة السياسية، الاستقرار، الاستمرارية والتثاقف. وسنحاول بعجالة قراءة واقعها ومدى خدمتها لظاهرة التحضر.

1/ الازدهار الاقتصادي:

منذ الاستقلال عجزت المشاريع الصناعية عن استيعاب طالبي الشغل لضعف مقدرتها وقوة عدد العاطلين فكثرة الالتحاق بالمدينة جعل بخصوص الشغل الطلب أكبر من العرض ثم إن الظروف الاقتصادية الدولية وهيمنة الرأسمال العالمي الذي أضعف اقتصاديات الدول المسماة "نامية" وهز الثقة في مشاريعها الاستثمارية الصناعية. وهذا يلغي إذا دور هذا العنصر في تطوير التحضر ورعايته خاصة مع نمو البطالة التي صارت تشمل الجميع وقد كثر الحديث عن بطالة حاملي الشهادات العليا.[2] هذا مع التذكير بهشاشة كثير من المشاريع المشغلة الآن مثل الأنشطة السياحية وهو قطاع وإن لعب دورا مهما في نمو التحضر في بعض الجهات مثل الواجهة الساحلية[3] فإن هشاشته لا تخفى خصوصا مع الظروف الدولية التي نعيشها•[4] . كما أن جل

---

[1] نجيب بوطالب، القبيلة التونسية، ص:301

[2] انظر على سبيل المثال: صالح المازقي، بطالة الإطارات في تونس، أسبابها، انعكاساتها، ومقترحات لحلها. أطروحة شهادة دكتوراه.

[3] انظر على سبيل المثال: رضا بو كراع،
La problématique de la communauté rurale au Maghreb in Revue Tunisienne de Sciences sociales, Vol. 13.1976, p. 1148-

[4] •في جل الدول، والعربية خاصة يعيش القطاع السياحي خوفا مستمرا فإشاعة وجود نشاط إرهابي تفرغ النزل وتدفع بالسياح إلى المغادرة.

المشاريع الصناعية مرتبطة أو في طريقها للارتباط بشريك في بلد أجنبي وهذا وإن ضمن النشاط فإنه يجعله تحت ربقة الشريك لأنه هو الأقوى ويمتد قوته من مكانته في السوق العالمية كما حرمت الاتفاقية العالمية للتجارة الصانع الوطني من التمتع التام بالسوق الداخلية بل هو مضطر للتعامل مع الأجنبي الذي يجلب نفس الإنتاج إلا أن خبرة الأجنبي ومقدرته تجعل التونسي غير قادر على منافسته لذلك لا يبقى أمامه إلا الرضوخ لشروطه أو التحول إلى وكيل تجاري (سمسار) والدليل على ذلك انتشار الفضاءات العارضة للبضائع المتصلة بالاستهلاك اليومي وخصوصا ما يتعلق بالأكل.[1]حتى القطاع الفلاحي صار تحت رحمة الاستيراد في كل ما يستحقه بما في ذلك البذور فماذا لو منع منها؟. لقد صار اقتصاد البلدان " النامية " مسخرا للاقتصاد القوى المهيمنة.

ب /السلطة السياسية:

بعد ما منيت بالفشل كل التجارب الاقتصادية صارت السلطة السياسية اليوم تبدو مكتفية بدور الحكم بين الأطراف الاقتصادية وهو أمر يبدو إتباعا للمنهج الليبيرالي لكن تشويهه يأتي من عدم قدرة هذه الأطراف على التصرف بحرية في المجالين الداخلي والخارجي نظرا لهيمنة اقتصاديات القوى العظمى (القوى الاستعمارية سابقا) على المجالين للأسباب التي ذكرناها. ثم وبعد التأثر بالواقع الاقتصادي الدولي صارت غير قادرة حتى على التكفل بضعاف الحال ولم تعد قادرة على تحمل ما تحملته في البداية. مثل توفير المنح والسكن للطلبة والعلاج المجاني لضعفاء الدخل.

ج/الاستقرار:

أما الاستقرار فإنه يبقى معرضا لكل الاحتمالات خاصة مع استمرار القوى العظمى في تعمد إهانة الدول النامية شعوبا وحكاما وهيمنة الاقتصاديات العالمية التي أدت إلى غلق نسبة متزايدة من المؤسسات الاقتصادية التي لم تتمكن من التأقلم مع هيمنة القوى الاقتصادية المحتكرة للسوق الداخلية والخارجية.

[1] ٫يكفي الجلوس أمام جهاز التلفاز قليلا للتأكد مما ذكر.

د/ الاستمرارية:

الاستمرارية هذا العنصر رهين ما ينجر عن العناصر السابقة إذ ستكون استمرارية ما حافظت المراكز الحضرية على دورها الاجتماعي المتمثل أساسا في توفير أسباب العيش لمتساكنيها ومن أهمها مواطن الشغل فالبطالة تدمر الفرد ومن ثمة المجتمع.

هـ/ التثاقف:

أما التثاقف فإننا نشهد هجمة انثقاف سخرت لها القوى الاستعمارية كل وسائلها للقضاء على الخصوصيات الثقافية للشعوب.

وفي كلمة نقول إن استمرار التحضر في مجتمع مسخر للقوى الاستعمارية التي صارت تبيح كل الممارسات وتستبيح كل المحرمات الدولية من أجل مصالحها رهين مدى استطاعة هذا المجتمع الصمود والتأقلم مع هذه الوضعية وخصوصا مدى صمود الطبقة الوسطى وإن كنا نلاحظ أنها بدأت تستقطب نحو بوتقة الفقراء. وعدم قدرة هذه الطبقة على المحافظة على التوازن الاجتماعي وانتشار الجريمة في الداخل، وقد صار الأمر منذرا بالخطر لقد عرف المجتمع التونسي الجريمة شأنه في ذلك شأن كل المجتمعات. لكن الجريمة كانت دائما عورة وعيبا يستر، كان الناس على المجرم وإن تحاشوه، ولم يكن يتجرأ على الجريمة أمام أعين الناس مثلما صار يقع اليوم[1]. واستباحة كل حرمات الأوطان من طرف القوى الاستعمارية يهدد باختلال رهيب للتوازن في الداخل أي بين مكونات المجتمع داخليا ومع الخارج نتيجة الحقد المتصاعد على القوى الاستعمارية. العلاقة بين الجريمة الاجتماعية، أي التي ينتجها المجتمع، والجريمة الدولية، أي التي ينتجها النظام الدولي، ليس موضوع بحثنا ولكنها تستدعي التحليل إذ مما لاشك التغاضي على شر يهدف تغطية شر آخر أكبر منه.

---

[1] سمعت من أحد الأقارب عن جريمة وقعت في المترو، وصادف أن محدثي يعرف الضحية مما سهل لي الاتصال بها وقد أكدت لي وهي فتاة في منتصف العقد الثالث من عمرها وروت لي أنها كانت بالمترو وشبه مكتظ بالركاب ونقدم منها شاب أخذ منها حقيبتها فصارت ترجوه أن يرجع لها أوراقها الخاصة وبكل برودة وأمام الجميع فتح الحقيبة وأخذ المبلغ المالي الذي كان بها ثم أرجعها إلى صاحبتها ولم يجرأ أحد حتى على لومه. هذه الواقعة تدل على مدى استعداء المجرم للقيم الأخلاقية للمجتمع وعلى مدى عدم قدرتها على القيام بدورها الوازع وهذا انعدام للمعايير كبير. ثم انظر ما تحكيه صحافتنا من جرائم تحدث أمام أعين الناس.

المراجع

- ابن منظور، لسان العرب، دار صادر بيروت 1994
- أحمد ابن أبي الضياف، إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان، تونس، الدار التونسية للنشر، 1990
- اسحاق يعقوب القطب(الدكتور)، نحو استراتيجية للتحضر في البلدان العربية. مبحث قدم في المؤتمر الثاني للاجتماعيين العرب، بغداد 1980.
- بوجمعة المشي، استغلال المجال الريفي بجهة سيدي بوزيد، الندوة الثالثة لقسم الجغرافيا بكلية العلوم الانسانية والاجتماعية بتونس (9-11 مارس 2000)
- حافظ ستهم، مقدمة لـ" العمران والتنمية في تونس" عمل جماعي شارك فيه كل من: منصر الرويسي، حافظ ستهم، سكينة بوراوي، المنجي بشير، حسين الديماسي، ورفيق بوخريص. نشر المعهد الأعلى للتربية والتكوين المستمر.
- خميس طعم الله التنمية والتشغيل والهجرة، دراسات دولية عدد: 22.
- عبد الرحمان ابن خلدون، المقدمة، دار الكتاب اللبناني 1979
- عبد القادر الزغل، المستقبل العربي.
- صالح المازقي، بطالة الإطارات في تونس، أطروحة شهادة الدكتوراه. تونس 1998
- هشام بن إبراهيم العمار، سياسة التعليم العالي ودورها في تنمية المجتمع السعودي، رسالة مقدمة لنيل شهادة الدراسات المعمقة، ص:39، تونس 1999
- هنري عزام، التحضر والنمو الاقتصادي في الوطن العربي
- نجيب بوطالب، القبيلة التونسية، كلية العلوم الانسانية والاجتماعية، تونس، 2002.

- Abdelkader DJAGHLOUL,*trois études sur Ibn Khaldoun*, Université d'Oran,1980 Cahier du C D S H
- Ali Oumlil, Ibn Khaldoun et la société urbaine, in la ville arabe dans l'Islam, C.E.R.E.S. 1982.
- A. Megherbi, La pensée sociologique d'Ibn Khaldoun, S.N.E.D. Alger, 1971
- Bouhdiba (A), *A la recherche des normes perdues*, Tunis, M.T.E. 1973
- Boukra Ridha, *La problématique de la communauté rurale au Maghreb in Revue Tunisienne de Sciences sociales,* Vol. 13.1976.
- Claude Lévi-strauss, La pensée sauvage
- Durkheim (Emile), De la division du travail social P.U.F. Paris,1960.
- Hermassi(E), Etat et société au Maghreb, 1975, Paris, Editions Anthropos,
- Encyclopdia Universalis 9
- F. Fanon, Les damnés de la terre, Paris, Editions Gallimard,1991.
- Frédiric GIRAUT, Les racines et le réseau : Les petites villes dans la transition territoriale ouest africaine. In '' Villes et campagnes dans les pays du sud" Edition KARTHALA , Paris,1999.
- F. Tönnies, Communauté et société, Paris, P.U.F. 1944
- J. Rousseau, Du Contrat Social. Paris, Union générale d'Edition, 1973.
- K. Marx & F.Engels , *L'Idéologie Allemande*, Un document produit en version numérique par Jean-Marie Tremblay,
- professeur de sociologie. Courriel: jmt_sociologue@videotron.ca. Site web: http://pages.infinit.net/sociojmt, Dans le cadre de la collection: "Les classiques des sciences sociales"Site web: http://www.uqac.uquebec.ca/zone30/Classiques_des_sciences_sociales/index.html .